على المشروع الصهيوني

[أزمة الفكر ومأزق الدولة]



مركز الدراسات العربية والدولية

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة كتب الاتحاد

مائة عام على المشروع الصهيوني

[أزمة الفكر ومأزق الدولة]

مركز الدراسات العربية والدولية

مراجعة واعداد :

مصطفى محمد المقداد

اخراج :

مجدي جمعة

رقم الايداع

١٦ / ١ / ٧٥٦٢

مقدمة

■ مائة عام مضت على انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال السويسرية حيث دعا المؤسس حاييم هرتزل كبار قادة اليهود للتناقش والحوار حول ايجاد صيغة تنظيمية وعملية لاقامة دولة لليهود تكون سياجاً سياسياً لشتاتهم وتجميعاً لهم.

وبعد مائة عام كانت الصهيونية قد أشادت بنيانها السياسي في فلسطين منذ خمسة عقود وظهرت وقائع على الأرض مطالبة باعادة النظر في الحركة الصهيونية التي انطلقت كفكرة سياسية وأنتجت دولة قامت على فكرة خرافية تلغي الوجود التاريخي للعرب الفلسطينيين في أرضهم وتنفي أية حقوق سياسية لهم في العيش وحق تقرير المصير.

وبعد خمس حروب كان لابد من اللجوء الى مائدة المفاوضات والاعتراف بالشعب الفلسطيني وحقه على أرضه خلافاً لجوهر الفكرة الصهيونية التي عبرت عنها ذات مرة جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل السابقة في معرض اجابتها على سؤال حول مصير الفلسطينيين المطرودين قائلة: أين هم الفلسطينيون؟.. أنهم غير موجودين أصلاً..!

تعود الفكرة لساحة النقاش والاختلاف والتقويم بعد

معايشتها لواقع شهد تغيرات دراماتيكية أكبر من التصورات خلال العقود العشرة الماضية فقد توحدت دول قامت على ايديولوجيات ومبادىء شمولية وتفككت أخرى بعد انهيار نظام المنظومات الشاملة، ووقعت حربان عالميتان توحدت في أثرهما كيانات وانفصلت أقاليم وأقطار عن بعضها وعادت ألمانيا التي قسمها الحلفاء الى حظيرة الوحدة متحملة أعباء اعادة البناء في تأهيل الشطر الشرقي منها وبدأت تمارس دوراً متنامياً في قيادة الوحدة الأوروبية والمساهمة في السياسة الدولية وتحررت من عقدة المحرقة الى حد ما..

بعد مائة عام على الفكرة التي أخذت منحى مختلفاً في التحليل بدأ أبناء الدولة العبرية «التي كانت نتاج الفكرة أصلاً» يتنكرون لمنظريها وحراسها وقد ظهر ذلك جليا من خلال عدم مشاركة الرئيس الاسرائيلي عزرا وايزمان ورئيس الحكومة بنيامين نتانياهو في الاحتفالات التي أقيمت في مدينة بال بالمناسبة التي مضى على قيامها مائة عام كاملة حققت خلالها انتصارات وحددت فيها مصائر شعوب ودول، لكنها اختلفت داخلياً وتناقضت أصولياً حتى ان رئيس الوزراء الاسرائيلي تجاهل تماماً أي وجود لمثل هذه الاحتفالات وغادر اسرائيل في رحلة بعيدة في الشرق الأقصى شملت اليابان وكوريا الجنوبية، ولم تبد وسائل الاعلام الاسرائيلية اهتماماً بالحدث التاريخي في حين كان العرب مهتمين لدرجة كبيرة بمتابعة وتحليل تطور الحركة الصهيونية وانعكاساتها وتأثيراتها على المنطقة.

كما أن المتنادين لاقامة الاحتفال المئوي لم يوجهوا دعوة الى أقارب المؤسس هرتزل وكأنهم يعربون عن نيتهم في قطع الصلات مع الماضي وعزمهم على صياغة خطط جديدة تتفق والتغيرات الحاصلة على أرض الواقع في ظل ظروف اتسمت بالعداء والقطيعة ما بين المنظمة الصهيونية والدولة الاسرائيلية. ففي خطابه أمام المؤتمرين حمل ابراهام بورج رئيس المنظمة

الصهيونية على الحكومة الاسرائيلية ودعا الى رفض ونبذ الفكرة القديمة التي تستند الى اقامة دولة صهيونية على أساس الأرض، وهذا هو التحول الكبير في الفكرة التي وجدت نفسها تصطدم بعقبات كبيرة لدى تحولها الى مجال التنفيذ والممارسة.

والعرب مدعوون لاعادة النظر في تقييمهم لحجم وشكل العدو لصياغة استراتيجيات تتوافق وتحقيق غاياتهم في عودة الحقوق وسيادة العدل والسلام في المنطقة.

مركز الدراسات العربية والدولية

الفصل الاول

مائة عام
على المشروع الصهيوني

■ جورج حبش

مائة عام على المشروع الصهيوني

□ جورج حبش

■ سأتناول في الحديث فعل الايديولوجية الصهيونية في المجتمع الاسرائيلي ومايحاول البعض ترويجه من وجود اختلاف بين الحزبين الكبيرين العمل والليكود، والسبل الكفيلة لمجابهة المشروع الصهيوني.

وبداية اشير الى حقيقة مادية وهي ان الايديولوجية الصهيونية ستبقى قوة فعالة واساسية في تحريك المجتمع الصهيوني وان فكرها ليس منغلقا بل يرى الاحداث الأساسية في المشروع الصهيوني.

وهذه الصفة الجوهرية الملازمة للحركة الصهيونية تدحض وجهة نظر أصحاب الرأي القائل بوجود خلافات جوهرية بين استراتيجية كل من العمل والليكود فليس هنالك خلافات بينهما ولكنها فوارق تفصيلية وتتعلق بالجوانب التكتيكية، اما في الاساسيات والرؤى السياسية الاستراتيجية فكلاهما متفقان الى حد كبير، لانهما ينطلقان من نفس القاعدة الايديولوجية والعقائدية التي ارستها الصهيونية وحددها المشروع الصهيوني.

وبرأيي ان اصحاب وجهة النظر هذه يعملون بقصد، او بدون، قصد، على نشر وعي زائف وزرع الوهم في عقول العرب والفلسطينيين اضافة الى انهم لايقرأون المعطيات وهم منشدون

الى رغبة ذاتية تدحضها الوقائع وقطعا مثل هذه المواقف يترتب عليها لاحقا مواقف خاطئة تجاه المشروع والاحزاب الصهيونية.

العمل انجذب نحو اليمين

وسأناقش ماهو معلن من مواقف لحزب العمل و حسبي الاشارة الى وثيقة ايتان بيلين التي حملت مواقف الحزبين ورؤيتهما النهائية للموضوع الفلسطيني وجاء فيها:

- القدس الموحدة عاصمة اسرائيل الابدية.
- لا عودة الى حدود الرابع من حزيران عام ٦٧.
- الابقاء على المستوطنات القائمة حتى بعد المفاوضات النهائية.
- لاعودة للفلسطينيين الذين شردوا منذ عام ٤٨.
- الاقرار بكيان ما للفلسطينيين دون سقف للدولة و السيادة الكاملة.

ماذا يفهم من خلالها؟ هل تقدم حزب العمل فعلا نحو الاقرار بحقوق شعبنا في الدولة والعودة وتقرير المصير. اما انه على العكس من ذلك انجذب نحو اليمين؟ وماذا سيعطي الفلسطينيين بعد هذه الثوابت وماذا سيبقي لهم، وهل الحديث عن «سكان ارض اسرائيل» كما جاء في مقدمة الوثيقة يدحض ام يزكي وجهة النظر القائلة بالفوارق الجوهرية وتخلي حزب العمل عن الفهم الكلاسيكي للصهيونية؟ بكل صراحة اقول ان الوثيقة واضحة وضوح الشمس، وهي معارضة كبيرة لحقوق شعبنا الثابتة والمشروعة، وتاليا فهي لا تصلح اساسا لاية مفاوضات لاحقة ولاتشكل ارضية مناسبة لتسوية عادلة ودائمة.

واذا كان «حمائم» حزب العمل المعبر عن وجهة نظرهم السياسية في هذه الوثيقة، ينظرون الى قضية شعبنا ومفهوم التسوية بهذا المستوى فما بال اصحاب وجهة النظر الاكثر تشددا

وتطرفا وعنجهية في هذا الحزب « الصقور ».

كما أن هذا الحزب هو اول من باشر في بناء المستوطنات منذ عام ٦٧ واتخذ قرارا بضم القدس، وخاض الحروب ضد العرب، ووقع اتفاق اوسلو الذي لايتضمن الحد الادنى من الحقوق الوطنية وابعد ماذهب اليه في برنامجه شطب ممانعة اقامة الدولة الفلسطينية، لكنه لم يقر صراحة بها، بل ابقى المسألة ملتبسة ومبهمة وقابلة لشتى التفسيرات والتأويلات.

وزعيم هذاالحزب المعروف بخبثه ودهائه السياسي ادرك المتغيرات العالمية والاقليمية والتقطها ليعيد تسويق المشروع الصهيوني وفقا لمقتضيات ومتطلبات تلك المتغيرات عبر خطاب سياسي يتسم بالمرونة الظاهرية لكنه من حيث الجوهر يبقي على المشروع ومرتكزاته الاساسية التوسعية العدوانية عبر اطلاق مقولة الشرق اوسطية الجديدة.

وهذه المقولة تهدف الى اعادة ترتيب اولويات المشروع الصهيوني وتستبدل الاخضاع العسكري باخضاع اقتصادي ثقافي مستندا لمظلة عسكرية تقليدية ونووية، وطبقا لهذا المفهوم الجديد فان حزب العمل لم يسقط الاحلام الصهيونية في اسرائيل الكبرى وانما اعاد صياغتها تبعا للمستجدات والمعطيات الاقليمية والدولية وهذه المسألة لا تحمل اي التباس يدعو البعض الى الاعتقاد بأن تغييرا جوهريا قد حصل، وعلى الذين اساؤوا القراءة او فهموا الامور بخلاف ما هي عليه ان يعيدوا القراءة مجددا ويدققوا في مفاهيمهم التي تحمل قدرا كبيرا من التضليل والزيف له مترتباته الراهنة على السياسة، لكن الخطورة الاكبر في المستقبل لانهم يعملون على ترويج مفاهيم مغلوطة للاجيال القادمة وبما يقطع عليها الطريق ويصادر حقها في مواصلة النضال.

حقيقة خادعة

وطبقا لهذا الفهم فانني اختلف تماما مع الرأي الذي يرى في اسرائيل ووجودها امرا واقعا لايرد وان المتاح هو التصدي لدعاة التطرف الايديولوجي الذين ينادون بارض اسرائيل الكبرى، واعتقد جازما ان اسرائيل حقيقة مادية خادعة كونها ظاهرة عنصرية استيطانية والاعتراف بهذا لا يعني على الاطلاق التسليم بوجودها بل ان هذا الاقرار هو من منطلق قراءة هذه الظاهرة وتحليلها بهدف تغييرها، وان السبيل الوحيد لردع التطرف الصهيوني لن يستقيم دون النضال ضد كل المشروع الصهيوني وهذا لن يؤتي ثماره دون فهم علمي دقيق لجوهر الصهيونية.

ان صراعنا ضد الصهيونية وتخليص شعوب المنطقة والعالم من شرورها عبر النضال الفلسطيني والقومي استهدف بالدرجة الاولى دحر وهزيمة المشروع السرطاني وتخليص اليهود قبل غيرهم من هذه الايديولوجية العنصرية بنظري وهي ان النضال ضد هذا المشروع واسرائيل لا يستهدف الفكر الصهيوني كفكر رجعي عنصري، وتخليص اسرائيل من عنصريتها وصهيونيتها لا يعني اننا ننوي القاء اليهود في البحر كما تزعم الروايات الصهيونية والاعلام الصهيوني، نحن نرى ان مشكلة اليهود لا يمكن ان تجد حلها الصحيح الا في اطار فكر تقدمي ودولة ديمقراطية علمانية في فلسطين تتسع للجميع دون تميز في العرق والجنس او المعتقد.

وفي السياسة فان المحدد في فرض السياسات والاقرار بالحقوق والتسليم بالشرعية الدولية، يتطلب توفير موازين قوى محلية واقليمية ودولية تميل لصالح حركات التحرر وصالح الشرعية الدولية.

وفي الظروف الراهنة فان الشرعية الدولية ومواثيقها

واعترافها مستباحة بحكم السيطرة الاحادية للقطب الرأسمالي الامريكي الذي يدعم اسرائيل والمشروع الصهيوني بكل امكانياته المادية والعسكرية والسياسية.

ان احقاق حقوق شعبنا وارغام دعاة التطرف الصهيوني والاحزاب الصهيونية بمختلف تكويناتها السياسية او الاقرار بحقوق شعبنا في اقامة دولته المستقلة وتقرير مصيره وتطبيق حق العودة للاجئين، يتطلب تحقيق اخلال متدرج في موازين القوى خصوصا على المستوى الفلسطيني والعربي يسمح للثورة الفلسطينية ولمجمل حركات التحرر العربية بأن تفرض مواقفها استنادا الى مرجعيات الشرعية الدولية والثوابت الوطنية والقومية.

ومن المؤكد ان الوصول الى هذه الحالة يتطلب من كل القوى الفلسطينية والعربية والاحزاب والمنظمات والحركات الشعبية أن تتجاوز واقع الازمة والعجز والضعف وتبدأ بمراجعة مسيرتها وتحديد استراتيجية عملها للمرحلة ويوفر الاساس الذي يمكننا من هزيمة المشروع الصهيوني وارغام كل المؤمنين به على الاعتراف بالحقوق والثوابت الفلسطينية والعربية.

الانتخابات والقوى المتطرفة

كما ان نتيجة الانتخابات الاسرائيلية الأخيرة دلت وبما لا يدع مجالا للشك ببطلان صحة الموقف القائل بأن التحولات الاقتصادية والاجتماعية داخل اسرائيل ستجبرها على قبول حل سياسي وعلى اساس اقامة الدولة الفلسطينية والانسحاب الكامل من الاراضي العربية المحتلة.

ان محصلة هذه الانتخابات هي صعود القوى الأكثر يمينية وتطرفا الى سدة الحكم، وهي تعبير شعبي يرسم المنحى العام لتوجهات الشارع الذي نحى بوضوح نحو اليمين، فيما حشد

القوى الاسرائيلية التي تؤمن بحق شعبنا في تقرير مصيره ودولته المستقلة وحق عودته لم يشهد اي تقدم في الاحزاب الاسرائيلية التي يمثلها حزب ميرتس وبعض الاحزاب اليهودية التقدمية بل تراجع تمثيلها في الكنيست كما ان حزب العمل لم يتجاوز مواقف المزايدة التي يثيرها لاعتبارات حزبية داخلية.

ان اجبار اسرائيل وارغامها ودفع الشارع نحو الاقرار بحقوقنا الوطنية والقومية لن يتأتى بالاستجداء فواقع التجربة المريرة التي يعيشها اصحاب اوسلو يؤكد على ذلك، بل يتأتى بالضغط والفعل السياسي والاعلامي والجماهيري والكفاحي الوطني والقومي المتناغم والمتساند مضافا له وضع دولي متوازن يعمل على تطبيق معيار موحد لكافة القضايا الصراعية والاشكالية وليس وفق شريعة الغاب وسلطة تجبر القوة المهيمنة الأولى في «النظام الدولي الجديد» كما هو حاصل الآن.

العالم يحترم الاقوياء

والتجربة الملموسة لنضالنا الوطني الطويل علمتنا درسا يجب ان يبقى ماثلا في اذهاننا جميعا كفلسطينيين وعرب. ان العالم واوروبا والعالم الحر يعلو سقفه السياسي ويقترب اكثر نحو الموقف العربي كلما كان السقف العربي عاليا وكلما توحد الموقف العربي واصبح اكثر وضوحا وثباتا. ويزداد الاهتمام الدولي ويسمع العالم بقضيتنا كلما ارتفع صوت النضال الفلسطيني على صوت الاستجداء، واستبدال الضعف والعجز بالقوة والفعل، فعلينا ان نضع في سلم اولوياتنا فلسطينيا وعربيا استجماع عناصر القوة والفعل ونلفت انظار العالم لدورنا ومطالبنا وحقوقنا، ونكشف زيف الموقف الاسرائيلي الذي يحاول تضليل العالم والرأي العام العالمي والعربي، بالكشف عن الحقائق والمعطيات التي تؤكد امعان اسرائيل في سياستها العدوانية تجاه

شعبنا وشعوب المنطقة، وما تزعمه عن تمسكها بالسلام لا يعدو أكثر من اكاذيب مدروسة تستهدف التضليل وتستهدف فرض المنطلق الاسرائيلي المعادي للسلام الحقيقي وكذلك نعمل لتأجيج النضال وتصعيده في مواجهة سياسة الاستيطان والتهويد للقدس العربية ولمجمل الاراضي المحتلة.

ونضالنا نحن في الجبهة الشعبية يعبر في احد جوانبه عن رؤية استراتيجية بعيدة المدى تأخذ باعتباراتها الابعاد الديمقراطية والانسانية والحقوقية لوضع اليهود في فلسطين باعتبار ان ما نطمح إليه ونسعى له على المدى البعيد هو مجتمع ديمقراطي انساني الابعاد واشتراكي الملامح والتوجهات يعطي لكل ذي حق حقه دون تميز أو اضطهاد وبرأيي ان شعار الدولة الديمقراطية العلمانية في فلسطين سيشكل اساسا صالحا لنا ولكل القوى الديمقراطية والتقدمية اليهودية لتخليص اليهود من براثن الصهيونية العنصرية وحفظ حقهم للعيش بسلام وبمساواة تامة، وفي ذات الوقت يعطيهم الاطمئنان ويبدد الشعارات المضللة الزاعمة ان العرب والفلسطينيين سيقذفون بهم في البحر، وعلى الصعيد الفلسطيني فهي، اي الدولة الديمقراطية العلمانية، ستكون التتويج النهائي لنضال شعبنا واستعادة حقوقه وارضه التي طرد منها.

ركائز الصهيونية

ترتبط ركائز المشروع الصهيوني بالأهداف التي استدعت وفرضت انشاء الحركة الصهيونية وشكلت جزءًا عضويًا من المشاريع الاستعمارية وما تزال وتمكنت هذه المشاريع من ازاحة الامبراطورية العثمانية واقتسام البلدان الخاضعة لها.

فنشوء الحركة الصهيونية اذن مثل ضرورة استعمارية للسيطرة على العالم العربي أسواقًا وطرق مواصلات وثروات

للحيلولة دون بقائه موحدا وهذا ما وجد تعبيره في اتفاقيات سايكس بيكو، وتكرس بوضوح في اعقاب الحرب الكونية الأولى.

واستهدف وعد بلفور كجزء من المشروع الاستعماري استعمار فلسطين واقامة وطن قومي لليهود فيها ومن هنا حددت وظيفة الحركة الصهيونية بأنها قوة ضاربة في قلب العالم العربي.

وحتى تتمكن الدول الاستعمارية والحركة الصهيونية من تحقيق المشروع الصهيوني وأهدافه المتمثلة بتجزئة العالم العربي وخدمة المصالح الاستعمارية كان لابد من ركائز ايديولوجية «عقائدية» وبنى تنظيمية وعوامل اجتماعية له، ووجدت تلك في الخصوصية التي كانت تعيشها التجمعات اليهودية في أوروبا وما تعرضت له من اضطهاد فاستغلتها الحركة الصهيونية لاطلاق مشروعها وبدء نشاطها الفكري السياسي التنظيمي فقامت بتغذية الجيتو اليهودي وحقنته بالدعوات التوراتية - الدينية وبالروح العنصرية على اعتبار ان اليهود شعب ذو رسالة كونية وفي مرتبة تتقدم على أي شعب آخر ودعم ذلك طرح شعار العودة الى أرض الميعاد «فلسطين وأجزاء من الوطن العربي» باعتباره أمراً الهيا وحقا مطلقا لليهود.

واحيط هذا الدفع الايديولوجي بمنظومات فكرية وسلوكية تبرر هذا الهدف، بما في ذلك اعتبار فلسطين أرضاً بلا شعب وتوسيع طرد العرب وقتلهم، وانيط بأذرع الصهيونية مهمة لتنفيذ تنظيم الهجرة اليهودية الى فلسطين وطرد أهلها وبمساعدة وحماية مباشرة من الاستعمار الأوروبي ولاحقاً من الولايات المتحدة.

والآن بعد مرور مائة عام على المؤتمر الصهيوني الأول ما الذي تحقق من هذا المشروع؟.. بدون شك لقد تمكنت الحركة الصهيونية من تحقيق انجازات كبرى وخطت خطوات واسعة في تجسيد مشروعها، وأولها سيطرتها على ما يقارب ٧٨ بالمائة من

أرض فلسطين واقتلاع مئات الآلاف من أهاليها وتشتيتهم في المنافي عام ٤٨ واعلان قيام دولة اسرائيل وهو ما يمثل التجسيد الحي والمباشر لهذا المشروع.

وبهذا انتقل هذا المشروع من الفكرة والشعار الى مشروع استعماري واضح اقيم على أرض فلسطين وانطلق لتمتين بنى الدولة وتطوير قدراتها العسكرية والعلمية والبشرية والاقتصادية بحيث وصلت الى مستوى تمكنت فيه من الاستيلاء على كامل فلسطين وأجزاء أخرى من الوطن العربي.

استراتيجية جديدة . . التسوية

وهذا التطور دفع بالمشروع الصهيوني لأن يركض سريعاً بقدرات اسرائيل وفي شتى المجالات، الأمر الذي بات يستدعي استراتيجية جديدة تمثلت ركائزها في ضرورة انهاء أي رهان عربي على امكانية هزيمة اسرائيل عسكريا وبالتالي التوجه للتعامل معها كأمر واقع.

وعبر احداث فرقة وزعزعة للجبهة الرسمية العربية عملت اسرائيل لتحقيق هدف التعامل معها كأمر واقع وتحقق لها ذلك في اتفاقيات كامب ديفيد ٧٩ وخروج أكبر دولة من المجابهة معها، وترافق ذلك مع محاولة تحطيم المقاومة الفلسطينية وباستمرار اغراقها في حروب ثانوية انتهت باجتياح عام ٨٢ وخروج المقاومة من لبنان ثم اجهاض الانتفاضة.

ومرتكزات الاستراتيجية الجديدة عبر عنها في التسوية المطروحة الآن «الامريكية - الاسرائيلية» فهي تهدف الى التسليم باسرائيل كأمر واقع والتسليم بها كقوة مهيمنة في المنطقة، الأمر الذي يعني الاعتراف بها رسمياً وانهاء المقاطعة لها والاقرار بأن لها حقوقا اقتصادية وسياسية وأمنية، ومقاسمتها الأسواق والثروات العربية.

وعلى ضوء ما يجري استطيع القول ان المشروع الصهيوني تمكن من تحقيق خطوات استراتيجية كبرى هي بمثابة انتصارات متراكمة. وهزائم متتالية للأنظمة العربية ولحركة التحرر العربية والفلسطينية وتلك الانتصارات لم تأت من فراغ وليست عفوية الأمر الذي يعني ان المشروع أمن مقومات الانتصار عبر استراتيجيات عمل شاملة وتراكمية، واتسم بالديناميية والمرونة وتوظيف المعطيات بما فيها الاستنادالى القوى الاستعمارية وبناء حركة سياسية عالمية حشدت الدعم الواسع له.

ورغم هذه الانتصارات الكبرى فان هذا المشروع لا يقف عند حدود ما تحقق له. ويواصل مراكمة عناصر القوة والتفوق الشامل للانطلاق باتجاه تثمير الانجازات المتحققة وبسط هيمنته على المنطقة وجعلها مجالاً لنشاطه الاقتصادي والسياسي كجزء من المشروع الاستعماري الأشمل. وهذا هو مضمون ومحتوى المرحلة الراهنة الذي يتركز فيما يسمى بعملية السلام ومضمونها الاعتراف باسرائيل وبمركزيتها في المنطقة وبالتالي تحقيق هيمنتها السياسية والعسكرية والاقتصادية، وما يمكن تسميته «باسرائيل الكبرى اقتصاديا».

وحتى يتم انجاز هذا الهدف فانه لابد من انهاء الصراع العربي الصهيوني والفلسطيني - الصهيوني. وعلى أساس الاعتراف بانتصار اسرائيل عربيا وفلسطينيا وبالمعنى التاريخي والنهائي. وعلى هذا الصعيد تمكنت اسرائيل وحلفاؤها من اطلاق ديناميية التسوية الراهنة والتي اسفرت عن احداث اختراقات أخرى كبيرة تمثلت بمسلسل اتفاقيات اوسلو ووادي عربة وعملية التكسير والتآكل على صعيد المقاطعة العربية لاسرائيل. كما استطاع هذا المشروع فرض اسرائيل كقوة اقليمية ودولية وصل انتاجها القومي لما يقارب ٨٠ مليار دولار بينما هي محمية بقوة عسكرية نووية وبتحالف استراتيجي واسع مع اكبر قوة امبريالية.

وهذا يعني ان اسرائيل اصبحت قوة منافسة على المستوى الدولي وشريكا فعالا للامبريالية وليست مجرد اداة صغيرة.

واعيد واكرر بأن هذا المشروع في كل مرحلة وبعد تحقيق انجازات جديدة يندفع لتحقيق المزيد منها ويبرر أهدافًا جديدة له تستدعي منه الفعل والنشاط ومواصلة مراكمة مكونات القوة لضمان استمرار تفوقه وهيمنته وتحطيم أي مقاومة او نهوض وطني او قومي ومد نفوذه وسيطرته لآفاق وساحات جغرافية جديدة.

وبهذا المعنى نفهم عملية التعقيد في سياسة القوة الصهيونية ومضمون رؤية اسرائيل للسلام والذي يتيح لها السيطرة والتفوق الدائمين، وأي تباطؤ في تحقيق ذلك يعني افساح المجال لفعل ديناميات نقيضة في المنطقة تمثل تهديدا لهذا المشروع.

وهذا معناه اننا في حالة اشتباك تاريخي متواصل مع هذا المشروع مهما تكونت الوقائع ومهما اتخذت الاستراتيجيات والتكتيكات من مظاهر، واسرائيل وحليفتها واشنطن تدركان هذا الواقع، وتعملان باستمرار لتحقيق اطماع هذا المشروع الذي ليس له حدود، وتعملان لتطوير اهدافه واطماعه بتطور انتصاراته ومن يعتقد ان ما يسمى بالسلام، سيحد من اطماعهما يقع في وهم قاتل ومدمر فالسلام كما تفهمه اسرائيل وواشنطن هو جزء من صراع المشروع او وسيلة جديدة لتحقيق المزيد من الانتصارات له.

الايديولوجية قوة محركة

وقد يتبادر الى الأذهان سؤال حول من سيحسم الصراع الدائر بين الايديولوجية الصهيونية واستحقاقات تطور الدولة الصهيونية الرأسمالية؟ وللاجابة أرى أن الايديولوجية

الصهيونية ستبقى قوة فعالة واساسية في تحريك المجتمع الصهيوني فهي المهيمنة حتى الآن كما ان تغذيتها باستمرار هو حجر اساسي في الممارسة الفكرية والسياسية للحركة الصهيونية واسرائيل والأحزاب السياسية المؤثرة ولكن هذا لا يعني انغلاق الفكر الصهيوني وعدم رؤيته للأحداث والمتغيرات اقليميا ودوليا انه يحاول ان يتكيف وعلى قاعدة الحفاظ على تفوق اسرائيل والاستجابة لاشكالات الواقع. بهذا المعنى سيبقى الصراع بين الايديولوجية الصهيونية والقاعدة الرأسمالية لها ولكن ضمن سقف الحفاظ على المصالح العليا للمشروع الصهيوني.

ومما لا شك فيه انه ستحدث عمليات شد وجذب في الصراع لكنها ستبقى منضبطة لمحددات المشروع الأساسية ومضامينه السياسية والاستعمارية، ومن جانب آخر فان اسرائيل تدرك موقعها في خريطة الشرق الأوسط وهي لا تعمل وليس في واردها ان تصبح دولة عادية فهذا مناقض لاهدافها وطموحاتها انها تسعى لدور مهيمن ومقرر اضافة الى وظيفتها الاستراتيجية في مواجهة أي نهوض عربي وهذه الحقيقة التي تعبر عن جذرية الصراع وديمومته تعني ان اسرائيل ستبقى في حالة صراع وتناقض مع الواقع التاريخي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي العربي المحيط بها.

من هنا فانها ستكون دائماً بحاجة لذلك الفكر وتلك العقائد الايديولوجية، التي تبقي التجمع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين وعلى مستوى يهود العالم والدول الرأسمالية العالمية في حالة توتر واستعداد لاسناد اسرائيل وحمايتها ومدها بكل مقومات القوة العسكرية والاقتصادية والسياسية.

وما دامت موازين القوى في المنطقة مختلة بهذا الشكل والمضمون لصالح اسرائيل، فانها ستبذل كل ما تستطيع هي وحلفاؤها وخاصة الولايات المتحدة لابقاء حالة الخلل المشار اليها وتعميقها للسيطرة على المنطقة ونهب ثرواتها. وبهذا المعنى

ايضا ستبقى حالة التكيف قائمة بين التطور الرأسمالي للدولة والمجتمع، وبين الايديولوجية الصهيونية كايديولوجية محفزة وعدوانية تدفع نحو المزيد من السيطرة والنهب والتوسع.

اما في حال تمكن الأمة العربية من التقدم على طريق التماسك والنهوض السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، وتشديد مواجهتها لاسرائيل وأمريكا ومشاريعهما في المنطقة، والتهديد الجدي بقلب المعادلات، عندها ستصبح اسرائيل أمام سؤال حقيقي يطال وجودها في الأساس.

وهذا ما سيضعها وجها لوجه أمام خيار الاستمرار في عنصريتها وعدوانيتها او الاستعداد للعيش في المنطقة كحالة طبيعية، وهذا معناه ان الصراع قد انتقل الى مستوى نوعي جديد يستدعي اعادة ترتيب العلاقات بصورة مختلفة تماما عما هي عليه الآن.

أما ضمن المدى المنظور اذ تندفع اسرائيل وباسناد أمريكي شامل، لاحكام القبضة على المنطقة وترجمة اسرائيل الكبرى بالمعنى الاقتصادي، وتحت مظلة التفوق النووي، فانها ستبقى محكومة لعقائدها الايديولوجية الصهيونية واي حراك او سجال سيطال تلك العقائد سيبقى محكوما بالأهداف والتحديات القائمة، بما في ذلك فرض المفهوم الأمريكي - الصهيوني للسلام واستقدام المزيد من المهاجرين اليهود لفلسطين، وتصفية القضية الفلسطينية، والصراع العربي - الصهيوني - وفق المصلحة الاسرائيلية. وهذا كله يتطلب ترسانة فكرية تؤمن الأساس الايديولوجي لمواصلة المشروع الصهيوني ودفعه للأمام باستمرار.

مستقبل الصراع

سأتناول ثلاثة محاور تخص المشروع الصهيوني هي العلاقة

بين اسرائيل والدول الرأسمالية المتقدمة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، وامكانية التعايش ما بين العالم العربي والكيان الصهيوني في ضوء عملية مدريد والثالث هو المشروع النهضوي العربي وأهميته لمجابهة المشروع الصهيوني.

وما جعلني أتناول المحور الأول هو ما يروج حالياً حول تراجع الدور الاستراتيجي لاسرائيل في المنطقة والعالم في اطار المعسكر الامبريالي بعد انهيار الاتحاد السوفييتي وبعد نتائج حرب الخليج الثانية.

وفي اعتقادي ان هذا الفهم يحمل قدراً كبيراً من التشويه والخطورة، كونه ينظر للمعادلات وصراع الاستراتيجيات، فرغم كل التبدلات التي جرت وجديتها، الا انها لم تمس في جوهر الوظيفة الدور / الاستراتيجي لاسرائيل في المنطقة.

وهاتان المهمتان «الوظيفة الدور» لا تستطيع أي دولة استعمارية تأديتهما بتلك الكفاءة والقدرة كما تفعل اسرائيل وذلك لاكثر من سبب أساسي أهمها وجود اسرائيل كتجمع استيطاني متكامل في قلب العالم العربي وامتلاكها لمقومات قوة شاملة «عسكرياً - اقتصادياً - اجتماعياً وعلمياً»، وفي تقديري لولا الوجود الاسرائيلي واحتلال فلسطين وطرد شعبها لما كانت الهيمنة الامبريالية على المنطقة العربية بهذه الضراوة والضعف، ولولا هذا الوجود ودوره الكابح والتخريب لما بقيت الأمة العربية تعاني من كل مظاهر وأسباب التخلف الاجتماعي والاقتصادي وتعاني من حالة التمزق والتبعثر، لا أقول هنا ان اسرائيل هي سبب كل هذه البلاوي، ولكنها سبب اساسي في تعميق هذه الحالة والحفاظ على استمرارها.

وهنا لا يجوز ان ننسى ان المشروع الصهيوني بالأساس بدأ كجزء من مشروع استعماري أشمل عبرت عنه وبكل وضوح اتفاقيات سايكس بيكو في بداية هذا القرن. وحالة التخلف الاجتماعي والاقتصادي وجدت آلياتها في حالة التمزق العربي

وسيادة الروح القطرية التي لا تزال الأمة تحت وطأتها وتدفع أثمانًا باهظة. وتدرك البلدان الامبريالية الغربية وخاصة الولايات المتحدة الخطر الذي يهدد هيمنتها ومصالحها الاستعمارية في المنطقة، وخاصة الثروة النفطية والكامن بوحدة الأمة العربية، ونهوضها بما تمثله من قدرات بشرية هائلة، وقدرات علمية وثروات طبيعية ومساحات جغرافية كبرى.

لهذا فانها لا تتحرك ولا ترسم سياستها تجاه المنطقة وفق استراتيجية آنية قاصرة. وانما تنظر بعيدا في المستقبل، دون ان تنسى التاريخ ومراحل النهوض العربي والدور العالمي الذي لعبته الأمة العربية والحضارة العربية على مسرح البشرية.

في ذات الاطار تلمس الدوائر الامبريالية حالات التمرد الشعبي العربي، وعدم الرضا والقبول بحالة التفكك والانهيار الحاصلة، وتلمس الانفجارات الشعبية التي تحدث بين وقت وآخر في المنطقة انها تلمسها جيدا وتدرك دوافعها واهدافها، وبالتالي فان اسرائيل تبقي الرهان الأول لكبح محاولات النهوض تلك.

والدور الاسرائيلي لا يقف عند حدود الرعب العسكرية الذي تشيعه في المنطقة، اذ ان تفوقها العسكري هو وسيلة لفرض الهيمنة الاقتصادية والسياسية على الأمة العربية، وتدمير روحها المعنوية وتشويه وتزييف التاريخ العربي ومواصلة خلط الأوراق في منطقة الشرق الأوسط، وتمزيق مكونات الهوية القومية، هذا ما وجد تعبيراً له فيما يسمى «بالنظام العالمي الجديد»، وطبيعته الشرق أوسطية التي اطلقها بيرس «الشرق أوسط الجديد».

هنا أود أن ألفت النظر الى مسألة تحتاج الى تفكير وحوار، وهي الخلاف او التباين الذي بدأ يبرز ما بين الموقف الأوروبي والموقف الأمريكي تجاه حل الصراع في المنطقة، وبالتالي العلاقة التي تحكم كل طرف مع اسرائيل.

ومن الواضح ان العلاقة التي تحكم الولايات المتحدة مع

اسرائيل تتقدم بصورة واضحة وتتميز عنها مع أوروبا الغربية، الى الدرجة التي باتت تتماهى معها السياسة الأمريكية بالسياسة الاسرائيلية.

هذه المسألة تعود الى التنافس القائم بين المركزين الرأسماليين أمريكا وأوروبا على أسواق وثروات الشرق الأوسط وقد تفاقمت هذه العملية بعد حرب الخليج الثانية التي ساهمت فيها اوروبا بفعالية ولكنها انتهت بالهيمنة والسيطرة الأمريكية على اكثر احتياطي للثروة النفطية في العالم.

والهيمنة الأمريكية السياسية والاقتصادية تعود الى جانب قدراتها العسكرية والاقتصادية، والى علاقاتها العضوية مع اسرائيل، حيث باتت امريكا ترى في اسرائيل المعبر عن سياستها في المنطقة، ولهذا فانها باستمرار تشكل الغطاء السياسي لها في كل المحافل الدولية. اضافة لاسنادها اللامحدود بالدعم العسكري والاقتصادي. اسرائيل بدورها تدرك مكانة وثقل الولايات المتحدة وما تقدمه لها من دعم وحماية في مواجهة المنافسة القادمة من المراكز الرأسمالية الأخرى، ولهذا فانها ترى في السياسة الأمريكية التعبير الدقيق عن سياساتها على الصعيد الكوني.

أوروبا أمام هذه المعادلة التي نجم عنها تهميش الدور الأوروبي والسياسي والاقتصادي في الشرق الأوسط، والحاقه بالدور الامريكي. باتت تدرك بأن ما تطلبه اسرائيل وامريكا من أوروبا لا يتعدى الاستخدام من هنا الرفض الاسرائيلي القاطع لأي دور أوروبي مقرر في المنطقة، وكل ما هو مطلوب منها يجب ان يتم تحت مظلة السياسة الامريكية - الاسرائيلية.

هذا الواقع بات يثير أوروبا الغربية، التي ترى ضرورة انهاء الصراع في الشرق الأوسط عبر حل القضية الفلسطينية حلاً معقولاً، وعبر الاعتراف بحق اسرائيل في الوجود مما يؤدي الى تحويل الشرق الأوسط الى ميدان للفعل والنشاط السياسي

والاقتصادي، وأوروبا بهذا المعنى تدرك ان ما يربطها بالعالم العربي بالمعنى التاريخي والحضاري والاقتصادي اقوى بكثير من علاقات امريكا واسرائيل مع المنطقة.

وبالتالي من حقها استثمار هذه الحقائق. غير ان أمريكا تقف بصلابة أمام هذا الطموح الأوروبي، الذي يعني المساس بهيمنتها وسيطرتها على المنطقة من خلال تواجدها العسكري ومن خلال اسرائيل.

بهذا المعنى استطيع القول أن امريكا ترى في اسرائيل عمقا استراتيجيا لها غير قابل للنقاش، أوروبا ترى فيها احتياطا استراتيجيا ان جاز التعبير لحماية المصالح الرأسمالية العليا، ولكن من على قاعدة الندية والسماح لها بالمنافسة الطبيعية في المنطقة.

طبيعة اسرائيل تتناقض مع التعايش السلمي

أما المحور الثاني فالتجربة الملموسة منذ مؤتمر مدريد وحتى اليوم فيها ما يكفي من الوقائع والشواهد التي تدحض القول الذي يقول بامكانية التعايش ما بين العالم العربي واسرائيل، اذ ان طبيعة اسرائيل واهدافها وطموحاتها ورؤيتها للعملية السلمية تتخطى كل الأمنيات أو وجهات النظر أو الأوهام التي تدور في أذهان البعض ليحلم ويتمنى البعض كما يشاء. غير ان اسرائيل ترى في مشروع ما يسمى بالتسوية ليس أكثر من مدخل لفرض شروطها وهيمنتها على المنطقة، وفرض اولوياتها الأمنية والاقتصادية. انها لا ترى فيها كما يتصور بعض العرب فرصة لانهاء الصراع على اساس من الاحترام والتكافؤ والاعتراف بالمصالح المتبادلة كحد ادنى. وانما ترى في العملية السلمية مناسبة لالحاق المزيد من الهزائم بالأمة العربية وعلى أساس ان العملية برمتها تقوم على موازين قوى ممثلة بصورة كبيرة لصالح

اسرائيل وعلى العرب باستمرار دفع استحقاقات هذا الاحتلال.

هذا ما برهنته مسيرة الأعوام الستة المنصرمة من عمليات التفاوض على مختلف المسارات التفاوضية. فعلى المسار الفلسطيني كان هدف اسرائيل من العملية تصفية القضية الفلسطينية، وانهاء الحقوق الوطنية الفلسطينية، وتأييد احتلالها وسيادتها على فلسطين، والا بماذا تفسر اصرار اسرائيل على رفض حق العودة للفلسطينيين واقامة الدولة الفلسطينية، واعتبار القدس عاصمة اسرائيل الأبدية، ومواصلة سياسة الاستيطان، وانتزاع اهم مظاهر السيادة الوطنية سواء على الصعيد السياسي أو الأمني أو الاقتصادي؟

هل تعبر هذه السياسة والثوابت الاسرائيلية عن رغبة حقيقية في السلام أم تعبر وبصريح العبارة والممارسة عن روح عدوانية ومواصلة الاحتلال بشكل جديد. أما الدور الأساسي للطرف الفلسطيني في عملية التفاوض كما تراه اسرائيل فينحصر في حماية الاحتلال واهدافه وقمع اية محاولات شعبية فلسطينية تحاول مواصلة الاشتباك والصراع من أجل الحقوق الوطنية، اذن هل العقيدة الاسرائيلية هذه تنم ولو عن قدر قليل من الايمان بمبدأ التعايش السلمي وتبادل التعاون البناء المثمر كما يقول السؤال؟

أما على المسار الأردني، فلا تبتعد الصورة كثيرا عن هذا الواقع اذ تريد اسرائيل من الأردن جسرا لطموحاتها واهدافها الاقتصادية والسياسية.

ولعل المثل الأكثر وضوحاً يتجلى على المسار السوري - اللبناني حيث الصدام السياسي على هذا المسار بلغ ذروته. بين نهجين وفهمين للتسوية اولهما الفهم الذي تقول به سوريا ويقوم على اساس مبدأ «الأرض مقابل السلام» وعدم التنازل عن أي حق من حقوق السيادة القومية. وضرورة تكافؤ الاجراءات الأمنية والانسحاب الكامل من جنوب لبنان.

وثانيهما: الفهم الاسرائيلي للسلام والذي لا يتخطى العملية والاخضاع، لهذا نجد ان العملية لم تتقدم جديا على هذا المسار، والانجازات البسيطة التي تحققت ابان حكومة رابين عادت اسرائيل وبزعامة نتانياهو للتراجع عنها.

وعلى الساحة العربية عموما لا ترى اسرائيل في العملية السلمية سوى فرصة لاختراق العقل العربي والأسواق العربية، ومقاسمة الأمة العربية في مياهها ونفطها وثرواتها، وفتح ابواب التطبيع امامها على مصراعيها.

كل هذا يجري في ظل مواصلة اسرائيل تطوير ترسانتها العسكرية التقليدية والنووية، وبدعم عسكري لا محدود من الولايات المتحدة وآخرها وضع المخازن العسكرية الامريكية الضخمة في اسرائيل تحت تصرف الأخيرة. مقابل هذا تقيم اسرائيل وامريكا الدنيا ولا تقعدها عندما يتعلق الأمر بتحسين تسليح بعض الجيوش العربية كما حصل مؤخراً حول صفقة السلاح بين جنوب افريقيا وسوريا.

ان طموح واهداف اسرائيل لا تنطلق من قناعتها بدور عادي وطبيعي في المنطقة اساسه الاحترام وحسن الجوار كما يقال، فهذا اصلا مناقض لجوهر واهداف المشروع الصهيوني، لانها تدرك كما تدرك أمريكا ان وضع المعادلات ضمن هذا الاطار يعني ويجب ان يعني بالضرورة تخلي المشروع الصهيوني والامبريالي عن اهدافه الاستعمارية في الهيمنة والنهب والوقوف في وجه محاولات النهوض الوطني او القومي العربي.

ان هذا مناقض لطبيعة الاستعمار وجوهره على طول الخط.

بهذا المعنى فانني على قناعة أكيدة بأن لا تعايش بين اسرائيل والمحكومة بالايديولوجية الصهيونية وبالأهداف التوسعية والاستيطانية والرافضة للحقوق الوطنية والقومية للشعب الفلسطيني والأمة العربية، والتي لا ترى في هذا السلام سوى وسيلة لتوسيع مجال عدوانيتها وتوسعها الاقتصادي

وفرض اولوياتها الأمنية وضد محيطها العربي الذي سيبقى يناضل من اجل حريته واستقلاله الوطني والقومي وعلى مختلف الصعد والمجالات.

اذن المشروع الصهيوني غير قادر على تأمين حل عادل واخلاقي لمسألة اليهودية بل انه باستمرار يستثير المزيد من العداء والكراهية بين اليهود ومحيطهم الاجتماعي، وهذا يؤسس باستمرار لتواصل الصراع وتأجيج الحقد. عدا عن كونه يحاول استبدال محرقة اليهود واضطهادهم في أوروبا بمحرقة ضد الشعب الفلسطيني واضطهاده وطمس وجوده وحقوقه.

اننا كأمة عربية نستند الى تراث رائع من التسامح وضربنا على مر التاريخ نماذج مشرفة في تعايش القوميات والطوائف، وليس لدينا تجاه اليهود أي موقف سلبي، بل اننا على استعداد لاحتضانهم واحترامهم واحترام عقائدهم وثقافتهم على أساس حل ديمقراطي شامل للمسألة اليهودية، وباستمرار كان اليهود يعيشون وسط الجماهير العربية في المغرب. ومصر، والعراق، وسوريا، وفلسطين، ولبنان، واليمن، ولم تمارس ضدهم أي سياسات عنصرية او اساءة. بعكس ما كانوا يتعرضون له في اوروبا التي تتحدث بتبجح عن الحضارة والديمقراطية.

انطلاقا من هذا فان رؤيتنا لحل مسألة اليهود الموجودين في فلسطين تقوم على أساس ديمقراطي وتعايش انساني حقيقي، وليس على أساس عنصري او على اساس الادعاء الفارغ بتميز العرق اليهودي، اننا مستعدون كأمة عربية وشعب فلسطيني لاستقبال هؤلاء اليهود الذين يوجد قسم اساسي منهم ليس له يد في كل ما يخص باعتبارهم جزءا من الواقع لهم ما لنا وعليهم ما علينا، هذا هو المنطق السليم لمفهوم التعايش الانساني الديمقراطي والحقيقي وليس الدعوات العنصرية واغراق المنطقة في الحروب والصراع من اجل مشروع استعماري ليس همه الأساسي مصلحة اليهود في كل الأحوال.

صيرورة تاريخية

أما المحور الثالث فأرى ان المشروع النهضوي العربي هو صيرورة تاريخية اجتماعية، تتركز أهدافه في توحيد الأمة العربية والسير بمجتمعها من دوائر التخلف الى التقدم والتنمية الشاملة البشرية والاقتصادية، واقامة المجتمع العربي المتحرر من الاستعمار والتبعية والذي تسوده القيم والممارسة الديمقراطية، ويضع مصالح العرب فوق اي اعتبار طبقي او قطري ضيق. مجتمع يستند على تراثه الحضاري والتاريخي العظيم، وفي نفس الوقت مندمج مع تحديات العصر وما يحتاجه المستقبل.

وحقيقة هذه الأهداف النبيلة تواجه قوتين كبيرتين أساسيتين هما ديناميات التخلف الناجمة عن التمزق وعدم مواكبة التطور البشري، وهذه الدينامية تغذيها القطرية والتخلف الاقتصادي والاجتماعي، وغياب الديمقراطية بالمعنى الشامل والعميق، والثاني الاحتلال الصهيوني لأرض فلسطين وتشريد شعبها حيث لا تقف اهداف المشروع الصهيوني عند حدود فلسطين بل يستهدف ابقاء الأمة في حالة تمزق وتخلف وتحت الهيمنة الامبريالية سياسيا واقتصاديا ويقوم بدور التصدي لأية عمليات نهوض او تقدم او توحد للأمة العربية، كون المشاريع الامبريالية ترى في أية عملية نهوض عربي تهديداً مباشراً لمصالحها ولسيطرتها ولنهبها لأسواق وثروات الأمة.

وهاتان القوتان تغذي احداهما الأخرى. فالتخلف والتمزق يغذي حالة الضعف المستشرية في الواقع العربي. الذي ينعكس بدوره كعامل تقوية للقوى الاستعمارية في المنطقة، ويسمح لها بمضاعفة سطوتها وهيمنتها وقهرها للأمة، وبالمقابل وجود اسرائيل يعمق حالة التخلف والتمزق والضعف، وهكذا في عملية تراكمية سلبية نجد تجلياتها في استمرار اتساع الهوة بين

الأمة العربية واعدائها على صعيد موازين القوى بالمعنى الشامل.

بهذا المعنى، لا يمكن الحديث عن مشروع نهضوي قومي بدون بعد اجتماعي تنموي «سياسي واقتصادي» بدون مواجهة التخلف ومظاهره وآلياته الداخلية، وفي ذات الوقت يجابه المشروع الامبريالي - الصهيوني، واعتبار التحرر الوطني والقومي من الاحتلال الصهيوني ومن التبعية للدوائر الامبريالية بهدف تحرر السياسة العربية والاقتصاد العربي والثروات العربية من النهب الامبريالي يبقي هدفاً دائماً ومستمراً، وبقدر ما يحدث من تقدم على صعيد احدى الجبهتين المشار لهما، يحدث بالضرورة تقدم على الجبهة الأخرى هذا هو الاطار العام للمسألة.

غير ان هذا الاطار محكوم بمعطيات وعوامل وعناصر في غاية التشابك والتعقيد، بعضها تاريخي وبعضها راهن. بعضها اقتصادي وبعضها سياسي وبعضها الآخر ثقافي. اضافة لموازين القوى الراهنة على المستوى القومي وعلى المستوى القطري، الى جانب كل ذلك يبرز الواقع القطري الذي تحول مع مرور الزمن الى وقائع، وأفرز حقائق مادية وتنوعا وتفاوتاً لا يجوز القفز عنه او الاستهانة به على مختلف المستويات. الأمر الذي يجد تعبيراته في تحولات اجتماعية وطبقية متباينة وأحياناً شديدة التنافر.

هذا الواقع يستدعي انضاج رؤية شاملة، ترى العملية بشموليتها وابعادها ومضامينها التاريخية الراهنة والمستقبلية، وفي ذات الوقت اعتبار النهوض القومي عملية تاريخية تحتاج لجهد عربي. تشارك فيه جموع الأمة العربية، انه صيرورة تراكمية عليها أن تبدأ بما هو موجود لما هو مطلوب.

بهذا المعنى يمكن وضع بعض العناوين التي بدون توفرها يصعب الحديث عن عملية نهوض وتقدم.

أول هذه العناوين: التصدي للوجود الصهيوني في المنطقة، واعتبار الصراع ضده هدفاً جامعاً للأمة العربية اذ بدون مجابهة

ووقف توسعه وعدوانيته يصبح هدف التحرر والوحدة شبه مستحيل.

ثانياً: اعتبار الديمقراطية مبدأ ناظما ويشمل الحرية السياسية والفكرية والاعلامية واحترام حقوق الانسان. اذ بدون اطلاق الفاعلية الاجتماعية وتحرير الانسان من تراث القهر والقمع والاستلاب يفتقد الحديث عن التقدم لأي جدية، فالانسان هو مجرد الزاوية في هذه العملية التاريخية.

ثالثاً: طرح موضوع الثروات العربية وضرورة تحريرها من الهيمنة والنهب الامبريالي كمطلب شعبي ومصلحة قومية عليا.

رابعاً: الارتقاء التدريجي بالتنسيق العربي ومحاولة تطوير وتحديث المؤسسات القومية القائمة، الجامعة العربية، واطرها المحيطة واعتبار المصالح العربية القومية هي الضابط لعقل ونشاط تلك المؤسسات. وشمل هذا العنوان أيضاً التقاط أية فرص والدفع لتوحيد بعض الأقطار العربية، قطرين أو أكثر.

خامساً: السير على طريق احداث عمليات تكامل اقتصادي متدرجة، مثلاً التعرفة الجمركية، تنشيط التجارة بين الأقطار العربية، حماية الأسواق العربية من المنافسة الأجنبية، انشاء منطقة حرة للتجارة العربية.. وغير ذلك من الخطوات التي يمكن تفعيلها من الجهات المختصة.

سادساً: تسهيل حركة التنقل بين الأقطار العربية بما يؤمن التواصل والتمازج.

سابعاً: تنسيق تعليمي واعلامي على أساس الالتزام بالمصالح القومية العليا وبحقوق الانسان العربي، واحترام تراثه وتاريخه وحضارته.

ثامناً: اطلاق حرية التفكير والنهضة الثقافية وبجهود مشتركة يشارك فيها عموم المثقفين العرب، والاعتراف بدور الثقافة والمثقفين المحوري، واستعادة العقول والأدمغة العربية المهاجرة.. فاطلاق العقل العربي وتحريره ليس عملية بسيطة بل

عملية تحتاج لجهود جبارة وعمل جماعي تراكمي متواصل.

تاسعا: تنسيق الجهود بين القوى السياسية والتيارات العقائدية المختلفة على صعيد كل قطر عربي، وعلى الصعيد القومي وتنظيم أنشطة مشتركة وفعاليات مشتركة اساسها الدفاع عن حقوق ومصالح الأمة والمواطنين العرب.

عاشرا: احترام مبدأ التنوع الفكري والديني والطائفي والقومي واعتبار هذا التنوع مسألة طبيعية للانسان بشرط احترام المصالح العليا، فالتنوع دليل قوة وصحة للجميع.

هذه مجرد عناوين وأفكار، وهناك عناوين اخرى وميادين أخرى تشمل الجوانب الحياتية والطبيعية للانسان العربي.

في النهاية، انني على قناعة راسخة وعلمية بأن حالة التراجع التي تمر بها الأمة العربية حالة مؤقتة لن تدوم الى ما لا نهاية لسبب بسيط يتمثل في ان الانسان العربي لن يتخلى عن اهدافه ومصالحه وطموحاته في التحرر والتقدم، فهذا ميل طبيعي لأي مجتمع بشري يستند الى تراث وحضارة وتاريخ عظيم، فهو يدرك بالتجربة والممارسة وبالعقل ان ما هو قائم يتناقض مع مصالحه واهدافه القومية وحالة التخلف والتمزق تدفع به وبالأمة العربية نحو المزيد من التخلف والتراجع، ورد الفعل الطبيعي على هذا الواقع والحال سيكون بالعمل والمحاولات المتواصلة للتقدم والنهوض طال الزمن أم قصر.

الفصل الثاني

حقيقة ديمقراطية اسرائيل

د. فايز رشيد

الفصل الثاني

حقيقة ديمقراطية اسرائيل

■ د. فايـز رشـيد

■ اسرائيل تنصب نفسها واحة للديمقراطية في الشرق الاوسط وسط «صحراء الدكتاتورية العربية»، اسرائيل تمارس كذبة كبرى في تشدقها بالديمقراطية تماما مثلما مارست الصهيونية كذبتها بادعائها بالحق التاريخي لليهود في فلسطين!! كان الشعار الذي تمثله الطرفان «اكذب» اكذب ثم اكذب. حتى يصدقك الناس، المجتمع الدولي بعد مائة عام على المؤتمر الصهيوني الاول وبعدما يقارب الخمسين عاما على انشاء الدولة العبرية صدق المكذبين!! فاضافة الى تفهم المجتمع الدولي لحق اسرائيل في الوجود على الارض الفلسطينية، فان اغلبية دول العالم تتعامل مع اسرائيل باعتبارها نظاما شبيها بالديمقراطيات البورجوازية الليبرالية الغربية!! برغم ما تقترفه من فظائع تجاه الشعب الفلسطيني وعموم الشعوب العربية. لايمكن للديمقراطية ان تنسجم مع العنصرية، ولايمكن للديمقراطية ان تتمثل بالانظمة الفاشية والنازية.. لان مفهوم الديمقراطية يتنافى ويتناقض مع الانظمة والمفاهيم السالفة الذكر.

كيف يكون النظام ديمقراطيا وهو من الاساس يقوم على الاغتصاب وعلى التنكر لنواميس الطبيعة وقرارات الشرعية الدولية؟

كيف تكون الدولة ديمقراطية وقوانينها تنضح عنصرية وحقدا على كل من هم غيريهود حتى بالنسبة لمن تعتبرهم

سكانها ومواطنيها؟ كيف يكون البناء الديمقراطي سليما في ظل التفرقة القائمة بين اليهود الشرقيين والغربيين؟ كيف يمكن لاحوال الديمقراطية ان تستقيم في ظل سيادة المفاهيم التوراتية والتلمودية في الدولة العبرية؟

النظرة الى الديمقراطية الاسرائيلية يجب ان تتفرع الى عدة زوايا انطلاقا من رؤية المشروع الصهيوني برمته ومخططات الاستراتيجية بانشاء دولة اسرائيل الكبرى والقيام بدور تخريبي في الدول العربية في محاولة تهديم البنية الاجتماعية لهذه الدول، وانطلاقا من النظرة العنصرية لكل غير اليهود وبخاصة العرب، وانطلاقا من جملة الحقائق المتعلقة بالنظرة الى «طوائف» اليهود شرقيين ام غربيين؟ وكذلك الى القوانين العنصرية التي ماتزال قائمة في المؤسسة الدستورية والقانونية الاسرائيلية؟ انه لايمكن النظر فقط الى جانب واحد من الصورة وهو المتعلق بحدة الحوارات في الكنيسست الاسرائيلي، والهجوم على رئيس الوزراء في الاذاعة والتلفزيون والصحف، واستقالة او اقالة اي وزير او مسؤول اذا طالته الفضائح، وما تتطرق اليه الصحف الاسرائيلية ومحاولة امساكها بكل المواضيع وبكافة المسؤولين. كما قلت ان ذلك شكل احد الجوانب، ولكن دعونا نرى الجوانب الاخرى،

استحالة وجود ديمقراطية في اسرائيل

منذ ابتداء تشكل الحركة الصهيونية ومحاولتها تحويل اليهودية من مفهوم دينى الى حركة قومية استعمارية وبالتالي طرحها بضرورة ايجاد وطن «للشعب» اليهودي.. فإنها بالمعنى العملي والفعلي التصقت بمفهوم الاستعمار واستهدفت وبكافة الاشكال القسرية فصل اليهود عن المجتمعات التي عاشوا بين ظهرانيها هذا من جهة، ومن جهة اخرى فان انشاء الوطن

اليهودي لابد وان يكون على حساب شعب آخر، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف ووفقا للمبدأ الميكافيللي «الغاية تبرر الوسيلة» بحثت الحركة الصهيونية عن اهداف مشتركة مع الحركات الاستعمارية الاوروبية فوجدت كل منهما في الاخرى وسيلة لتحقيق اهدافها. ومن ناحية اخرى فقد استغلت الصهيونية الدم اليهودي نفسه في سبيل تحقيق اهدافها وتحالفت مع ابشع الحركات الفاشية والنازية وعقدت صفقات على حساب اليهود مع هاتين الحركتين الاثمتين! وبالتالي فان التعبير السياسي عن الحركة الصهيونية المتمثل في دولة اسرائيل ارتبط في اساسه وجوهره بمفاهيم تحريفية الديانة اليهودية وتحويلها الى مفهوم قومي استعماري اغتصابي وتم ربط عمليتها بالحركة الاستعمارية الاوروبية من اجل مسيرة توافقية هدفها تفكيك الوطن العربي بجزئيه الاسيوي والافريقي ومن اجل منع اية علاقات وحدوية بين اقطار هذا الوطن من خلال زرع الجسم الاسرائيلي الذي يضمن المحافظة الكاملة للمصالح الاستعمارية في المنطقة، لذلك وبالمعنى العلمي لايمكن لهذا الكيان ان يكون ديمقراطيا فهو من اساسه بني على الطغيان والظلم والاغتصاب والتعاون مع الاهداف الاستعمارية!!

ومنذ بداية الطرح الصهيوني بضرورة فصل اليهود عن المجتمعات التي يعيشون فيها، انبرى كثيرون من ليبراليي اوروبا ومفكريها واشتراكييها لتخطئة هذا الفهم وتبيان مخاطره والتحذير منه بما في ذلك الكثير من المفكرين والكُتّاب اليهود الاصل ومن بين هؤلاء كارل ماركس الذي اعتبر ان اليهودية استمرت بفضل التاريخ وليس رغما عنه، ولذلك فان تحرير اليهود يعني تحرر المجتمع من اليهودية ولقد اعتبر الكثيرون من هؤلاء المثقفين مفهوم «الشعب اليهودي» مفهوما رجعي المحتوى، استعماريا في جوهره.

ولقد وقف الكثيرون من الكتاب اليهود ضد مقولة «الشعب

اليهودي» ومن بينهم : ابراهام ليون وارثر كوستلر وبخاصة في كتابه امبراطورية الخزر وميراثها - القبيلة الثالثة عشر والذي يستنتج ان اليهود الحاليين في اغلبيتهم العظمى ليسوا ساميين اي من نسل بني اسرائيل القدامى، بل آريون وقوقازيون خزر على وجه التحديد، منهم جنس هجين وغير نقي.. ويهود اليوم هم غير اليهود القدامى».

ولقد عارض انشاء وطن قومي لليهود «في آواخر القرن التاسع عشر والتحول باليهودية من مسألة دينية الى قضية قومية كل من التجمعات اليهودية في المانيا والولايات المتحدة، والنمسا وفرنسا وبريطانيا.

ولقد عرضت الحركة الصهيونية وعند قيام دولة اسرائيل على العالم اليهودي اينشتاين رئاسة الدولة في بدايتها لكنه رفض المنصب انطلاقا من وجهة نظره: بان الدولة الاسرائيلية قامت على انقاض شعب آخر ولايمكن ان تكون دولة ديمقراطية باي حال من الاحوال.

مسيرة الاحداث وخلال حوالي مائة عام. منذ بداية الهجرة اليهودية الى فلسطين وحتى اللحظة مليئة ومحشوة بالجرائم والفظائع الاسرائيلية تجاه الفلسطينيين والعرب وكل الانسانية، واذا كنا لانود التطرق الى هذه الفظائع فلأنها معروفة.

منذ قيام الحركة الصهيونية اعتمدت اسلوباً للتخاطب مع اليهود يقوم على: استثنائية اليهود وانفصاليتهم عما حولهم واستحالة تحقيق الأمن لهم في الشتات ولذلك فلابد من خلق وطن لهم، ومن أجل تحقيق ذلك ربطت مصيرها ومصالحها بالتوجهات الامبريالية المتبعة على مدى تاريخها وحتى اللحظة!

لقد استطاعت الحركة الصهيونية في بدايتها من ممارسة عملية خداع كبرى وديماغوجيا واسعة، ذلك انها طرحت نفسها باعتبارها: حركة تحرر وطني لليهود وتجسيداً (لقومية) مضطهدة، وان وليدها المنتظر (الدولة) سيكون نموذجاً للتقدم

والديمقراطية وسط صحراء التخلف والقمع العربية في المنطقة !!

بعد مائة عام على مؤتمرها الأول، اضافة الى حقيقة الممارسات الاسرائيلية منذ قيام الدولة ضد الفلسطينيين والعرب.. لم يعد الخداع الصهيوني ليمر على المجتمع الدولي، وما كانت تطرحه الحركة الصهيونية انقلب الى النقيض على صعيد الممارسة فهي قد مارست استعماراً استيطانياً لا يستند الى أية أسس قومية، ومارست وما تزال عدوانية وتوسعية وعنفاً وارهاباً وعنصرية يندر أن تجد مثيلاً لها في التاريخ، وهي حتى اللحظة ومنذ قيام الدولة اقرب منها الى دولة العسكرتاريا من الرأس حتى أخمص القدم منها الى الدولة بمعناها المدني، وبالتالي ونتيجة للممارسات التي اختبرها العالم كانت الأرضية مهيأة - وبخاصة ضمن موازين دولية معينة - لاكتشاف المجتمع الدولي لعنصرية الحركة الصهيونية في منطلقاتها الأيديولوجية وفي ممارسة تعبيرها السياسي (اسرائيل) داخلياً وعلى صعيد المنطقة العربية، ودوليا على صعيد المجتمع الدولي.

اضافة الى السوابق العديدة للصهيونية في التحالف مع الفاشية والنازية فان الدولة العبرية ومنذ انشائها ربطت مصالحها مع مصالح الحركات والأنظمة العنصرية في العالم ولذلك فان اسرائيل كانت من بين عدة دول لا تتجاوز اصابع اليد الواحدة ممن حرصت على انشاء أمتن العلاقات مع النظام العنصري في جنوب افريقيا ونظام بنومنست في تشيلي وغيرها من أنظمة القمع والدكتاتورية الدموية ضد شعوبها وضد كل الحركات الوطنية والتحررية.

ان أحد أهم الركائز التي اعتمدت عليها الصهيونية هي السيطرة على العصب المؤثر المتمثل في المجالين الاعلامي والاقتصادي في الدول المتعددة من أجل التأثير على سياسات هذه الدول وبخاصة فيما يتعلق بتأييد اسرائيل. ان ابرز مثال على

ذلك هو الولايات المتحدة الامريكية حيث يمتد النفوذ الصهيوني الى الدوائر السياسية والاعلامية والاقتصادية بشكل يلفت النظر حيث يعتبر الكثير من المحللين ان الولايات المتحدة محكومة للنفوذ الصهيوني فيها وليس العكس.

الصهيونية شكل من أشكال العنصرية

لقد أصدرت الأمم المتحدة في ١٠ نوفمبر ١٩٧٥ قراراً والذي يحمل الرقم ٣٣٧٩ «باعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية والتمييز العنصري».

لم يأت قرار الأمم المتحدة حباً في الفلسطينيين أو العرب.. وانما اعتمد على الوقائع والأحداث التي ثبتتها لجان الأمم المتحدة المختصة، في مختلف... مجالات حقوق الانسان، وبناء على دراسات موضوعية لما تمارسه اسرائيل ضد الفلسطينيين والعرب من تعديات على حقوقهم.. ولم يأت هذا القرار من فراغ كذلك فقد سبقته قرارات متعددة لمؤتمرات دولية عديدة منها:

- قرار الجمعية العامة رقم ١٩٠٤ (د-١٨) في ١٩٦٣/١١/٢٠ والذي أصدرت الأمم المتحدة بموجبه اعلانا للقضاء على التمييز العنصري.

- قرار الجمعية العامة رقم ٣١٥ (د - ٢٨) في ١٩٧٣/١٢/١٤ بشأن التحالف الاثم بين العنصرية في افريقيا الجنوبية والصهيونية.

- اعلان المكسيك لعام ١٩٧٥ بشأن مساواة المرأة واسهامها في الانماء والسلم (الاعلان الصادر عن المؤتمر العام الدولي للمرأة) والذي تضمن «ان التعاون والسلم الدوليين يتطلبان تحقيق التحرر والاستقلال القوميين، وازالة الاستعمار والاستعمار الجديد، والاحتلال الأجنبي، والصهيونية، والفصل العنصري، والتمييز العنصري بجميع اشكاله، وكذلك الاعتراف بكرامة الشعوب وحقها في تقرير المصير».

- قرار مجلس رؤساء دول وحكومات منظمة الوحدة الافريقية

الذي انعقد في كمبالا في (٢٨/٧ - ١/٨/١٩٧٥) والذي جاء فيه «ان النظام العنصري الحاكم في فلسطين المحتلة والنظامين العنصريين الحاكمين في زيمبابوي وافريقيا الجنوبية ترجع الى أصل استعماري مشترك، وتشكل كياناً كلياً ولها هيكل عنصري واحد، وترتبط ارتباطا عضوياً في سياساتها الرامية الى اهدار كرامة الانسان وحريته».

- الاعلان السياسي والاستراتيجية الرامية الى تعزيز السلم والأمن الدوليين وتوطيد التضامن والمساعدة المتبادلة بين البلدان غير المنحازة، اللذين تم اعتمادهما في مؤتمر وزراء خارجية البلدان... غير المنحازة المنعقد بليما (بيرو) في الفترة بين ٢٥ - ٣٠/٨/١٩٧٥، هذا المؤتمر الذي ادان الصهيونية بأقصى شدة بوصفها تهديدا للسلم والأمن العالميين، وطالبت جميع البلدان مقاومة هذه الايديولوجية العنصرية والامبريالية.

ولقد تم ادانة العنصرية الصهيونية دوليا من قبل رجال الفكر والسياسة والقانون (والأمثلة يمكن ابراز العديد منها على مدى السنوات الثلاثين الأخيرة).

ولكن نظراً لظروف الواقع العالمي الجديد والهيمنة الامريكية على القرار الدولي بعد انهيار الاتحاد السوفييتي ودول المنظومة الاشتراكية فقد شنت الولايات المتحدة وحلفاؤها حملة ظالمة ضد القرار المذكور متهمين الأمم المتحدة باللاسامية، وعملت الولايات المتحدة ما في وسعها من اجل الغاء القرار، ولقد مارست ضغوطاً كبيرة على العديد من الدول في سبيل الغائه.. ونظرا لموازين القوى الجديدة فقد ألغت الأمم المتحدة القرار رقم ٣٣٧٩.

لكن هذا الالغاء لا يعني بأي شكل من الأشكال ان الصهيونية تختلف عن حقيقتها وجوهرها العنصري اللاانساني والمعادي للشعوب.

الحركة الصهيونية تمثل خطراً كبيراً على الانسانية برمتها وليس على الفلسطينيين والعرب فحسب، ويكفي أن نقول: انها

تصور كل الآخرين بشراً من نمط آخر يجب عليهم ان يعملوا في خدمة اليهود الذين يقعون فوق كل الآخرين في (السلّم) البشري كما تعتقد!! بالمعنى الفعلي انها نفس الأطروحات النازية التي دعت الى العرق الآري النقي، الصهيونية تدعو الى العرق اليهودي النقي.. وبالتالي فان أي ادعاء اسرائيلي بالديمقراطية ما هو إلا مقولة جوفاء وخواء فكري يفترض الغباء في كل الآخرين.

أما الحديث عن الممارسات والسياسات العنصرية الاسرائيلية والتي تتنافى مع أية مفاهيم ديمقراطية تتشدق بها الدولة العبرية، بل العكس من ذلك فإن هذه السياسات تشكل قاعدة عريضة للرد على كل الادعاءات الاسرائيلية بتبني النهج الديمقراطي في اسرائيل. فبدأ من «قانون العودة» الذي يجيز لأي يهودي في العالم أو لكل من يعتنق اليهودية الهجرة إلى اسرائيل والانتفاع بحق الاقامة فيها وامتلاك جنسيتها والتملك فيها مع حرمان سكان البلاد الأصليين الذين هجروا قسراً من مدنهم وقراهم (اضافة إلى محاولة طرد أكبر عدد من الفلسطينيين من بلادهم - حتى اللحظة) من العودة، مروراً بكل الموبقات التي اقترفتها اسرائيل بحق الفلسطينيين: المذابح، تهديم اربعمائة قرية فلسطينية من على الخريطة، مصادرة الاراضي بدواعي الأمن والقمع والتشريد واعتبار الفلسطينيين أقلية سكانية، احتلال الاراضي، الإرهاب والاعتقال والتشريد، عدم الاعتراف بأية حقوق سيادية وقانونية للفلسطينيين إلاّ من خلال ابقائهم تحت الاحتلال.. كل ذلك يحكم الدولة الاسرائيلية بسمات العنصرية والارهاب والتي تتناقض جوهريا مع الصفة الديمقراطية لهذه الدولة. وقد تطرق موشيه شاريت أول وزير خارجية لدولة الكيان الصهيوني وأول رئيس للوزراء بعد ديفيد بن غوريون (١٩٥٤ - ١٩٥٥) للعنصرية والارهاب الممارس من قبل اسرائيل في مذكراته المنشورة في الولايات المتحدة، ومن الجدير

ذكره أن الكاتبة الامريكية اليهودية «ليفيادو كاخ» اعتمدت على هذه المذكرات كأساس لكتابها «ارهاب اسرائيل المقدس» الصادر في نيويورك عام ١٩٨٠، ولقد حاولت «الحكومة الديمقراطية» في اسرائيل تعطيل ترجمة ونشر الكتاب فيها طيلة سنوات، لأنها اعتبرت نشر الكتاب مساساً بالوجه الديمقراطي الذي تحرص على الإدعاء به، وبخاصة أن هذه المذكرات جاءت في سبعة مجلدات وكشفت الكثير من المخططات والأساليب العدوانية لإسرائيل سابقاً ولاحقاً والتي جاءت الأحداث مطابقة في معظم الأحيان مع ما تم نشره على لسان أحد أهل البيت وهو «موشيه شاريت».

كيف تستقيم الديمقراطية مع التعاليم التوراتية التي ما تزال تدرس في اسرائيل ويثقف بها طلاب المدارس.

«ليمت جميع الناس ويحيى اسرائيل وحده»

«يرفعك الله فوق جميع شعوب الأرض ويجعلك الشعب المختار المقدس».

«ويقف الأجانب يرعون أغنامكم أما أنتم - بني اسرائيل - فتدعون كهنة الرب تأكلون ثروة الأمم وعلى مجدهم تتآمرون» - سفر اشعيا - وفي التلمود نجد.

«إن اليهود أعز على الله من ملائكته، فإن جرؤ شخص ما على ضرب أحد اليهود كان قد ارتكب جريمة الصفع ضد الذات الالهية نفسها ومن يفعل ذلك يستحق الموت».

وفي السنددهين (أحد كتبهم الدينية) تعثر على الجملة التالية:

«انتم يا أمة اسرائيل تدعون بشراً أما ما عداكم من الأمم فوحوش».

كيف تستطيع الدولة الاسرائيلية ان تكون ديمقراطية (كما يتساءل الكاتب الاسرائيلي: اسرائيل شاحاك في كتابه «التاريخ اليهودي»، الديانة اليهودية، وطأة ثلاثة آلاف سنة) في الوقت الذي أصدرت فيه اسرائيل قانوناً في عام ١٩٨٥ وأقره أغلبية

الكنيست: يمنع انشاء حزب يعارض برنامجه مبدأ «الدولة اليهودية» أو أن يسعى إلى تغيير هذا المبدأ حتى بالوسائل الديمقراطية.. وبالتالي لا يجوز له المشاركة في أية انتخابات؟.

اسرائيل تمارس تمييزاً عنصرياً ضد غير اليهود يشمل مجالات عديدة أبرزها: حقوق الاقامة، حق العمل، وحق المساواة أمام القانون لقد اصدرت اسرائيل قانوناً يسمى «قانون العودة» وهو القانون الذي يعطي الحق لكل اليهود في العالم أو من يعتنق اليهودية في الإقامة الدائمة في اسرائيل وكذلك جواز السفر والحق في المساعدات من الدولة وكذلك الانتفاع من ٩٢٪ من «أرض اسرائيل» المخصصة رسمياً لمصلحة اليهود فقط.. وجميع غير اليهود ممنوعون من الانتفاع بتلك الأراضي.

وبالنسبة للقوانين الدينية في اسرائيل والتي ما تزال سارية المفعول حتى الآن فمنها:

- لا يجوز انتهاك حرمة السبت من أجل انقاذ حياة غير اليهودي.
- ويجوز تجريب الدواء على غير اليهود.
- غير اليهود كلهم اباحيون تماماً «لحمهم كلحم الحمير وقذفهم المني كقذف الجياد».
- لا يجوز لليهودي ان يعين غير يهودي في وظيفة مسؤولة عن يهود مهما كانت صغيرة.
- كل غير اليهود كذابين ولا يحق لهم الادلاء بشهادتهم أمام محكمة دينية يهودية.

وغيرها وغيرها من القوانين والتعاليم الدينية التي تؤسس لما نراه في مرحلتنا الراهنة من حقد وعنصرية اسرائيلية ضد الفلسطينيين والعرب!!.

ولا يقتصر التميز الاسرائيلي على العرب فقط.. وإنما يمتد كذلك إلى اليهود الشرقيين.. فمازال في دولة اسرائيل (الديمقراطية!!) اليهود الشرقيين ممنوعون من السكن في

بعض احياء اليهود الغربيين، ومازالوا ممنوعين من الوصول إلى رئاسة الوزراء.. وحادثة ليفي (اليهودي المغربي) معروفة حين زاحمه نتانياهو (اليهودي الغربي) على رئاسة الليكود بعد استقالة شامير من رئاسة الحزب وبعد أن كان ليفي الرجل الثاني في هذا الحزب.

وحادثة اتلاف بنك الدم الاسرائيلي لدماء اليهود الفلاشا قبل سنتين أصبحت معروفة بدعوى امكانية أن تحوي هذه الدماء فيروس الايدز.. وكأن المختبرات الاسرائيلية الحديثة لا تستطيع تحديد احتواء الدماء على هذا الفيروس (؟!).

وقبل اسبوعين قامت ضجة كبرى في اسرائيل حين منع ضابط اسرائيلي غربي عسكرياً يهودياً اثيوبياً من دخول المطعم في الكتيبة.. لأن الزنوج - من وجهة نظره - يجب ألا يأكلوا مع البيض!!.

اسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم التي يوجد فيه مرجعان دينيان: حاخام لليهود الشرقيين، وحاخام للغربيين!.

ولقد نشرت صحيفة هآرتس على مدار الشهرين الأخيرين حقائق كثيرة عن التناقضات (الطائفية) في اسرائيل بين اليهود الشرقيين والغربيين ويمكن اجمال هذه الدراسات فيما يلي:

من حيث:

الشهادات.. معدل حملة اللقب الأكاديمي في أوساط الغربيين ٤ أضعاف الشرقيين.

السكن.. ٦٥٪ يملكون شقة سكنية في أوساط الغربيين، ٤٩٪ من اليهود الشرقيين يمتلكون ذلك.

ضباط الجيش.. نسبة الضباط من أصل أشكنازي ٥ أضعاف نسبة الضباط الشرقيين.

القضاة في المحاكم.. ٧٦٪ من القضاة من أصل أشكنازي، ١٧٪ من الشرقيين ، ٧٪ من العرب.

من خلال ما تقدم تتضح الفجوة القائمة بين اليهود الغربيين

وبين الشرقيين - وهذه الأرقام لها دلالاتها العنصرية - وفقاً لهآرتس ولنستعرض الآن ما يقوله بعض الكتاب الاسرائيليين عن «ديمقراطية» دولة اسرائيل:

البروفيسور الاسرائيلي سامي سموحا في كتابه «العرب واليهود في اسرائيل» يقول: «إن اسرائيل ليست دولة ديمقراطية ليبرالية غربية، فالصهيونية والديمقراطية تتناقضان تناقضاً جوهرياً» ويتطرق إلى عنصرية الدولة العبرية الكاتب اليهودي اسرائيل شاحاك في كتابه «التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية، وطأة ثلاثة آلاف سنة». حيث يقول «الديمقراطية الاسرائيلية استطاعت دوماً تضليل الآخرين بالادعاء دوماً بأن اسرائيل هي واحة الديمقراطية في الشرق الأوسط فالدولة الديمقراطية أصدرت قانوناً في عام ١٩٨٥ وأقره أغلبية الكنيست يمنع انشاء أي حزب يعارض برنامجه مبدأ «الدولة اليهودية» وهذا بحد ذاته يتناقض مع ما تدعيه اسرائيل من تمسك بالقيم الديمقراطية.

تحرص أجهزة الإعلام الصهيونية والأخرى المساعدة لها على ابرار نقاشات الكنيست والتعرض لرئيس الحكومة والوزراء والفضائح والفساد والانتخابات.. ان ذلك هو أحد أوجه الصورة ولا يمكن فصله عن الجوانب الأخرى التي جرى التطرق إليها، إذ لا يمكن الفصل بين هذه الجوانب المتعددة، تماماً مثلما هي استحالة اطلاق صفة الديمقراطية على النظام السياسي الذي يحرص على أن يكون «ديمقراطيا» في بعض ممارساته، بينما هو قمعي دكتاتوري وارهابي مغتصب وعنصري في معظم سياساته ليست المتعلقة بالعرب فقط وانما باليهود كذلك!! فكيف يستطيع البعض تسمية اسرائيل بالدولة الديمقراطية. إن ذلك هو قمة التبني.

الفصل الثالث

الصهيونية
من الفكرة الى الدولة

سمير الزبن

الصهيونية من الفكرة الى الدولة

▪ سمير الزبن

▪ كتب تيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية غداة مؤتمر بال الصهيوني الأول في يومياته «لو طلب مني تلخيص مؤتمر بال في كلمة - وعليّ أن احرص عدم تلفظها بصوت عال - لكانت هي: في بال أسست الدولة اليهودية. لو قلت ذلك بصوت عال لضحك الجميع مني، لكن ربما في خمس سنوات، وبالتأكيد في خمسين سنة ستظهر الدولة لكل انسان. إن تأسيس دولة لا يكمن في ارادة الشعب بانشاء دولة، بل يكمن ايضا في ارادة فرد قوي قوة كافية.. الأرض هي فقط الأساس المادي». إن هذه النبوءة ترتبط بالأحلام الصهيونية التي فتح بابها هرتزل داخل التجمعات اليهودية، اكثر مما يرتبط بمعطيات قرأها هرتزل في الواقع الدولي والاقليمي القائم في ذلك الحين وبنى النبوءة عليها. ولكن المؤكد ان الفكرة الصهيونية امتلكت اداتها التنفيذية بعقد مؤتمر بال في سويسرا عام ١٨٩٧.

لم تكن الفكرة الصهيونية وليدة مؤتمر بال، فقد سبقت المؤتمر جهود يهودية متفاوتة من أجل تأسيس الوطن القومي اليهودي. سواء عبر الكتابات الفكرية الصهيونية، مثل كتابات زفي هيرش كاليشر الذي كتب (البحث عن صهيون) وموسى هيس الذي كتب (روما والقدس) وليو بنسكر الذي كتب نداءه الى اليهود وحمل عنوان (التحرر الذاتي) وكان هرتزل قد نشر قبل حوالي عام من مؤتمر بال مؤلفه (الدولة اليهودية)، أو بظهور الفكر السياسي الصهيوني العملي، والذي عبر عن نفسه

في بداية ثمانينات القرن التاسع عشر بظهور حركة (أحباء صهيون) التي قامت على دعم الاستيطان الصهيوني في فلسطين عن طريق تشجيع الهجرة اليهودية الى الأراضي المقدسة وتقديم المساعدة المالية والمعنوية للمهاجرين.

ظهرت الحركة الصهيونية على مسرح أوروبا والعالم منذ قرن. وانطلق مؤسسوها من مقدمة تفترض وجود شيء اسمه (المشكلة اليهودية) وان هذه المشكلة تحتاج الى حل متناسب مع معطيات العصر. فحسب المنطق الصهيوني، ان اليهود المنتشرين في كافة أنحاء العالم لن يتخلصوا من العداء الذي تناصبهم اياه الفئات غير اليهودية واضطهاد يقاسونه على أيدي الاغيار الا عندما يحصلون لأنفسهم على وطن يجمع شملهم، والشتات اليهودي في العالم يتعرض لخطر الاندماج والزوال ما لم يبادر (المشتتون) الى تركيز أنفسهم، عن طريق الاستعمار الاستيطاني في وطن قومي لهم في فلسطين.

قد يكون هيرتزل مؤسس الصهيونية السياسية فعلا، ولكن هذا لا يعني ان أفكاره وافكار من سبقوه من الصهيونيين كانت جديدة. لقد نشأت الفكرة الصهيونية لدى المسيحيين قبل ان يعتنقها اليهود، ولئن كانت معظم الكتابات الصهيونية اليهودية قد ظهرت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فان غير اليهود كانوا قد بدأوا في نشر الفكرة الصهيونية عن الوعي القومي اليهودي قبل عقد المؤتمر الصهيوني الأول بثلاثة قرون.

وفي الرواية الاسرائيلية يندر ان تعزى قصة نجاح الصهيونية لغير اليهود، لأن هذا النجاح يتم ربطه بشكل دائم بالارادة اليهودية والمواهب اليهودية لكن الصهيونية غير اليهودية عملت كمؤسس وحاضنة للمشروع الصهيوني، وهي تشكل عنصراً أساسياً في التاريخ الديني والاجتماعي والسياسي الغربي، كما انها تشكل خطا موازياً لتاريخ الصهيونية اليهودية. وليس خطا تابعا له، كما اثبتت ذلك ريجينا الشريف في كتابها القيم

(الصهيونية غير اليهودية - جذورها في التاريخ الغربي).

شكلت المنظمة الصهيونية العالمية التي تم تأسيسها في بال أداة تجسيد الفكرة الصهيونية، ونقلها من مجرد فكرة الى آليات عمل للوصول للهدف الصهيوني، فهي الوسيط التنظيمي بين النظرية الصهيونية والتطبيق العملي لهذه النظرية. واذا كانت النظرية الصهيونية قد اعتمدت على اسطورة «أرض الميعاد» وامكانية استعادتها وبناء دولة اسرائيل مرة أخرى، فان الأداة التنظيمية التي تم تأسيسها في بال، كانت في غاية الواقعية في التعاطي مع المعطيات السياسية العالمية وتوظيفها لصالح المشروع الصهيوني، وتكمن النقطة الجوهرية التي ميزت الحركة الجديدة عمن سبقها في تأكيد على أن الخلاص القومي لا يمكن تحقيقه عبر عملية متقطعة لاقامة المستعمرات، وانما في استقلال سياسي كامل لهذه العملية بحيث يكون هذا العمل محمياً على الصعيد العالمي، وكانت السياسة التي تمت صياغتها في بال لتنفيذ الفكرة الصهيونية تتلخص في (أن هدف الصهيونية هو خلق وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي، يضمنه القانون العام) ولكي يتم تحقيق هذا الهدف تبنى المؤتمر الوسائل التالية:

١ - العمل على تشجيع توطين العمال الزراعيين اليهود والصناع اليدويين والصناعيين وغيرهم من أصحاب المهن في فلسطين.
٢ - حشد الشعب اليهودي بأكمله لهذه الغاية عن طريق مؤسسات عامة تتلاءم مع القوانين المرعية في كل بلد.
٣ - تقوية المشاعر اليهودية والوعي القومي لدى اليهود.
٤ - الحصول على موافقة الحكومات المعنية لتحقيق غايات الصهيونية واهدافها.

وللقيام بذلك ووضعه موضع التنفيذ الفعلي كان لابد من جعل المنظمة الصهيونية منظمة فاعلة من خلال امتلاكها اجهزة مركزية ذات وظائف مختلفة. وهو ما يمكن اعتباره انجاز هرتزل

الأهم، حيث عمل على وضع برنامج سياسي، وصوغ الأسس التنظيمية، واعلان انطلاق العمل الصهيوني دولياً.

انطلقت الفكرة الصهيونية كمشروع استيطاني عملي لايجاد واقع جديد في فلسطين، من خلال بناء كيان سياسي في مكان بعيد عن مواقع عمل الحركة الصهيونية، مما جعلها تبدأ بالية مقلوبة القامة - الدولة. فمنذ ان انطلق بعمله اعطى هرتزل المنظمة الصهيونية صفة (الدولة على الطريق) معتبراً المسألة اليهودية ليست مسألة اجتماعية او دينية، بل هي مسألة قومية فرغم ان الحركة الصهيونية تأثرت بالحركات القومية التي كانت رائجة في اوروبا في القرن التاسع عشر، الا انها اخذت مسيرة متناقضة مع تاريخ الحركات القومية الأوروبية. فقد صاغت الحركة الصهيونية اداتها التنظيمية بما يشبه الحكومة، على عكس الحركات القومية التي حققت استقلالها ومن ثم شكلت حكوماتها. فقد كان على المنظمة الصهيونية ان تبني الأرض والسكان والعلاقات الدولية، قبل ان تمارس صلاحيات الحكومة فعلاً. واعتبرت المنظمة الصهيونية نفسها حكومة تهدد العالم، وراحت تعمل على انتزاع الاعتراف بها على هذا الأساس دولياً، وتكريس نفسها بهذه الصفة في مختلف التجمعات اليهودية.

لقد ولدت الحركة الصهيونية في فترة كان دعاة الاندماج اليهود أقوى من دعاة بناء الوطن القومي الصهيوني، وقد عمل هذا الوضع على احباط هرتزل في أحيان كثيرة، وقد اعتبر هرتزل ان الاندماجيين يشكلون خطرا على الصهيونية، فأخذ يوظف ظاهرة اضطهاد اليهود في روسيا وغيرها من أجل اثبات ان الاندماج لا يحل المشكلة اليهودية، وقد وظف هرتزل حادثة الضابط اليهودي داريفوس التي حدثت في فرنسا لثبات عدم جدوى الاندماج، فالصهيونية تجد في الاضطهادات مناخا خصبا لأفكارها، لأن الاضطهاد دافع جيد للهجرة، وفي الحقيقة لم يكن هدف الصهيونيين عندما قال «ان كل شيء يعتمد على قوتنا

الدافعة، وما هي قوتنا الدافعة؟ بؤس اليهود » وبسبب الرفض اليهودي للدعاية الصهيونية، بادر مؤسس الصهيونية منذ بداية التحرك الصهيوني الأوروبي الى رفع شعار كسب الجماعات اليهودية في العالم الى جانب المنظمة الصهيونية.. ففي المؤتمر الصهيوني الثاني بال (١٨٩٩) اعلن هرتزل شعاره الداعي الى «غزو الجماعات اليهودية » واجتذابها الى الحظيرة الصهيونية، وبعد مئة عام على مؤتمر بال ما زال هذا الشعار مطروحاً، فما زالت أغلبية اليهود - وبعد حوالي خمسين عاماً على تأسيس الدولة - تعيش خارج اسرائيل.

لقد عمل هرتزل خلال فترة توليه رئاسة المنظمة الصهيونية على تكثيف الجهود الدبلوماسية تجاه الدول الكبرى للحصول على «البراءة » التي تستطيع المنظمة الصهيونية بموجبها ضمان اقامة كيان صهيوني في فلسطين، كأولوية تفوق أهميتها الاستيطان في فلسطين، وعلى الرغم من فشل محادثات هرتزل مع كل من ألمانياوبريطانيا وروسيا والنمسا وتركيا ومصر في تأمين «البراءة المطلوبة » فقد نجحت جهوده في جعل «المسألة اليهودية » قضية عالمية، كما نجحت جهوده في الحصول على نوع من الاعتراف الضمني بالمنظمة الصهيونية العالمية.

لم تكن فترة قيادة هرتزل للمنظمة الصهيونية مريحة دائما، فقد عانى من المعارضة داخل المنظمة نفسها.

فاضافة الى التيار المعادي للصهيونية، فقد ظهر منذ المؤتمر الصهيوني الأول نوع من المعارضة سرعان ما تمثل في «الصهيونية العملية » التي ركزت أساساً على تشجيع حركة الاستيطان في فلسطين وتكثيف هذه الجهود من خلال دعم الهجرة وتمويلها. وكانت هذه الصهيونية تعارض «الصهيونية السياسية » التي تزعمها هرتزل، والتي ركزت في عملها للحصول على براءة من الدول المعنية لضمان شرعية واستمرار أي كيان صهيوني يقام على أرض فلسطين، واذا كان من

الصحيح ان الخلاف بين الطرفين لم يكن خلافاً مبدئياً، انما خلاف في التركيز على بند دون آخر من البرنامج الصهيوني الا ان هذه الخلافات هددت وجود المنظمة ووحدتها أكثر من مرة.

بوفاة هرتزل في عام ١٩٠٤، اختلفت كفة التوازنات في المنظمة الصهيونية لتميل لصالح «الصهيونيين العمليين» الذين زاد نفوذهم، وصولاً للسيطرة على المنظمة الصهيونية في المؤتمر الصهيوني العاشر ١٩١١.

ومع ازدياد هذا النفوذ تم رفض مشاريع الاستيطان الأخرى خارج فلسطين، خاصة مشروع أوغندا الذي اعتبره هرتزل خطوة لتجميع اليهود من اجل الانتقال الى فلسطين. فتم وضع المشروع جانبا واتخذ المؤتمر السابع قراراً بألا ينخرط الصهيونيون في أي نشاط استيطاني خارج فلسطين، ورفض مشروع أوغندا كليا. وتم اتخاذ القرار بتطوير الموقع الصهيوني في فلسطين وارسائه على قاعدة متينة، والسير على خطة منتظمة بالأنشطة الدبلوماسية والسياسية في ذات الوقت.

لقد أدت السياسة الجديدة للمنظمة الصهيونية الى ازدياد النشاط الاستيطاني الصهيوني في فلسطين عبر الأجهزة المختلفة لارساء قواعد «الوطن القومي اليهودي» وادت الجهود والمشاريع الصهيونية الى هجرة ٤٠ ألف يهودي الى فلسطين في الفترة الممتدة بين ١٩٠٤ و ١٩١٤، في حين لم يتجاوز عددهم منذ بدء الاستيطان في عام ١٨٨٢حتى العام ١٩٠٤ خمسة وعشرين ألفاً.

لم تكن الارادة الصهيونية التي تغنى بها هرتزل كافية لبناء المشروع الاستيطاني في فلسطين. وهذا ما كان يدركه جيداً، لذلك سعى بكل قوته للحصول على «البراءة» وخاطب كل الدول التي عقد مع مسؤوليها اللقاءات بأن اقامة دولة يهودية في فلسطين يخدم الدولة المخاطبة. حتى كادت رسائله لهذه الدول تتطابق مع تغيير العنوان فقط ان الادراك بضرورة ايجاد الحامي

للدولة القادمة كانت تحكم تحركات القادة الصهيونيين، وكانت الحركة الصهيونية في بدايتها تبحث عن من تخدمهم من خلال مشروعها الاستيطاني في فلسطين.

ان التقاطع بين المصالح الاستعمارية للدول الكبرى وبين الحركة الصهيونية، هو الذي جعل امكانية نقل هذا المشروع من اطار الفكرة الى اطار الواقع ممكنا، فتزايد المصالح الاستعمارية في المنطقة وخاصة البريطانية، جعل الحركة الصهيونية تعمل على خدمة المصالح البريطانية مقابل حماية بريطانيا لمشروعها الاستيطاني في فلسطين.

لقد كانت الحرب العالمية الأولى المناخ المناسب لتدعيم العلاقات بين الحركة الصهيونية وبريطانيا حيث ربطت الحركة مصيرها بانتصار بريطانيا في الحرب، وعملت ما بوسعها لدخول الولايات المتحدة الحرب الى جانب الحلفاء وقد اصدرت بريطانيا «وعدبلفور» تقديراً للجهود الصهيونية في ادخال الولايات المتحدة الحرب.

وبذلك تم ربط المشروع الصهيوني بالمصالح البريطانية في ترتيبات ما بعد الحرب، حيث تم تأمين وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني.

وكان الربط بين الحركة الصهيونية والمصالح الاستعمارية جليا في الأهداف السياسية التي حددتها الحركة الصهيونية في فترة الحرب والتي تحددت في:

- ضرورة انتصار الحلفاء في الحرب.
- اقامة انتداب بريطاني في فلسطين.
- تسهيل ذلك الانتداب دخول مليون يهودي أو أكثر الى فلسطين.
- انتهاء الانتداب بعد ان يكون اليهود قد سيطروا على مقدرات فلسطين.

وبعد انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الأولى. وحصول

الحركة الصهيونية على «وعد بلفور» ثم العمل على وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وقد سعت القيادة الصهيونية الى ان يتضمن صك الانتداب البريطاني جميع الوعود المعطاة لليهود في «وعد بلفور» وقد كان لهم ذلك المصادقة النهائية على قيام الانتداب البريطاني في فلسطين. وبدعم من الولايات المتحدة نص صك الانتداب على قيام «وكالة يهودية على أسس مناسبة لتكون هيئة عامةتقدم النصح وتتعاون مع حكومة فلسطين في المسائل الاقتصادية والاجتماعية وغيرها من الأمور التي يمكن أن تؤثر على اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين.

بسقوط فلسطين تحت الانتداب البريطاني تم العمل بشكل حثيث على تحقيق المشروع الصهيوني في فلسطين وازدادت حركة الهجرة اليهوديةالى فلسطين بشكل كبير. وقد نجحت المنظمة الصهيونية بفضل الدعم والتشجيع البريطاني والأمريكي في زيادة عدد اليهود في فلسطين من ٨٠ ألفاً أي ما يعادل ١١,١ في المائة من مجموع السكان في العام ١٩٩٢ الى ٦٥٠ الفا أي ما يعادل ٣٣,٣٪ من مجموع السكان في عام ١٩٤٨.

لقد عملت الاستراتيجية الصهيونية في فلسطين على اتجاهين متكاملين كانا جزءاً لا يتجزأ من مشروعها الاستيطاني في فلسطين. الاتجاه الأول يسعى الى «احتلال العمل» بمعنى استبدال العمال العرب بعمال يهود في المزارع اليهودية. والاتجاه الثاني «احتلال الأرض» يعني شراء الأرض من ملاك غير يهود، معظمهم من العرب، من قبل هيئات يهودية ومؤسسات استعمارية تساندها كالهستدروت والصندوق القومي اليهودي، انتجت هذه الاستراتيجية مجتمعاً صهيونياً يهودياً في فلسطين، مستقلاً الى حد كبير عن المجتمع العربي على قاعدة استكمال هذا المشروع الصهيوني من خلال اقتلاع السكان العرب. والذي كان ثابتاً من ثوابت الحركة الصهيونية منذ انطلاقها. وهذا ما سمح

لهم في عام ١٩٤٨ باقتلاع جزء كبير من الشعب الفلسطيني من أرضه، ولم يبق صامداًسوى أقلية ضئيلة.

ومع التطورات التي شهدتها الساحة الدولية في فترة ما بين الحربين ادركت الحركة الصهيونية تراجع دور بريطانيا الاستعماري. واقدم دور الولايات المتحدة وازدياد مصالحها في المنطقة، مما جعل الحركة تعقد مؤتمرها الاستثنائي في نيويورك وهو المؤتمر الذي ارسى انتقال مركز ثقل العمل الصهيوني على الصعيد الدولي من بريطانيا الى الولايات المتحدة، وربط مصير الحركة الصهيونية ومن ثم اسرائيل بالقوة العظمى الصاعدة.

شكل الاستيطان جوهر الحركة الصهيونية، وقد أخذ خلال فترة الانتداب البريطاني طابعا مكثفا ومنظما لتحقيق أهداف الحركة الصهيونية في بناء دولة اليهود في فلسطين. فتزايد عدد المهاجرين مما زاد من عدد المستوطنات، وقامت المؤسسات الصهيونية بتخصيص الأموال الطائلة لإنجاز هذه المهمة. وعمل الاستيطان ليس على تهويد الأرض فحسب، بل على تهويد العمل أيضا. فالعنصر العربي الذي يعمل في فلسطين يشكل خطرا على المشروع الصهيوني، ومن هنا كان شعار «العمل العبري» يهدف الى انتاج مجتمع غير متداخل مع المجتمع الفلسطيني حتى لا يتم ارتباط الاول بالثاني، في انتظار الفرصة السانحة لتنفيذ رؤية هرتزل التي صاغها في نهاية القرن الماضي من ضرورة طرد السكان العرب من الأراضي التي يستولي عليها اليهود.

على الرغم من ان عدد اليهود لم يصل الى ثلث عدد السكان في فلسطين عام ١٩٤٨، إلا انهم كانوا قد حصلوا على أكثر من ٥٦٪ من مساحة فلسطين في قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة في عام ١٩٤٧. ومع تسارع التطورات السياسية في الأمم المتحدة التي تلت ذلك العام وما بعده، قامت المنظمة الصهيونية بتأسيس «مجلس وطني» كان بمثابة برلمان للدولة الصهيونية

القادمة، و «ادارة وطنية» كانت بمثابة حكومة للدولة المرتقبة، وتزعم بن جوريون كلا من اللجنة التنفيذية الصهيونية واللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية والادارة الوطنية. مع حلول عام ١٩٤٨ وانتهاء الانتداب البريطاني، كانت العصابات الصهيونية جاهزة لتنفيذ مخططاتها بطرد الفلسطينيين من خلال المذابح والاعتداءات التي قامت بها العصابات الصهيونية ضد السكان الفلسطينيين. وكشف المشروع الصهيوني عن نفسه بشكل نهائي كمشروع استيطاني اقتلاعي اجلائي وعنصري.

كان لقيام دولة اسرائيل أثره الكبير في خلق وضع جديد دفع العلاقات بين المنظمة الصهيونية العالمية واسرائيل الى أزمة، بتأكيد كل منهما على الدور المركزي الذي يجب ان تلعبه، وقد استمرت هذه الأزمة متصاعدة ولم تنكسر حدتها حتى عام ١٩٦٨.

بقيام اسرائيل تحقق الهدف المركزي للمنظمة الصهيونية كما حدده مؤتمر بال في عام ١٨٩٧. وقد دفع الواقع الجديد الى ولادة اتجاه في اسرائيل يقف على رأسه بن جوريون يقول: ان المنظمة الصهيونية العالمية بعد قيام اسرائيل فقدت مبرر وجودها. وقد وقف بن جوريون بقوة ضد مركزية دور المنظمة الصهيونية العالمية. فهو يعتبر في كتابه «بعث اسرائيل ومصيرها» «ان الحركة الصهيونية نجحت في ايجاد الدولة وان اسرائيل الآن هي الأداة الوحيدة لتحقيق حلم الصهيونية، والحركة الصهيونية لن تحسد الدولة لأنه لا يوجد أب يحسد نجاح ابنه، وبما ان اسرائيل لا تستطيع ان تتدخل في الشؤون المحلية للجاليات اليهودية في البلدان الأخرى ولا تستطيع ان تصدر اليهم الأوامر او ان تطلب منهم طلبات محددة. فهنا يأتي دور المنظمة الصهيونية العالمية القائمة على الادارة الحرة والارتباط الارادي والجهد التطوعي لتقوم بكل ما لا تستطيع ان تقوم به اسرائيل خارج حدودها. وأن واجب الحركة الآن هو ان تأخذ

مكانها الطبيعي بين الأقليات اليهودية خارج فلسطين ». فقد اراد بن جوريون ان تصبح اسرائيل مركز العمل الصهيوني وان تقوم المنظمة الصهيونية العالمية بدور مكمل للدولة باقتصار مهمتها على تهجير اليهود الى فلسطين وتقدم تعليم العبرية، وكان له ما اراد في النهاية. وأخذ بن جوريون منذ وقت مبكر من بناء الدولة يبشر بأن الصهيونية العالمية استنفدت اغراضها ويجب ان تتلاشى في منظمة يهودية عامة تساعد اسرائيل. ورأى بن جوريون ان الوقت قد حان ليتخلص من الصهيونية التي وصفها بأنها « أصفاد وأغلال تقيد الدولة ».

شبه بن جوريون المنظمة الصهيونية العالمية بـ « السقالة » التي لابد منها في مرحلة بناء المشروع الصهيوني، أما وقد اكتمل البناء بقيام اسرائيل فلم يعد لها لزوم ويجب تفكيكها لأنها لم تعد ضرورية. وكان بن جوريون قد حسم موقفه من المنظمة الصهيونية في الخارج منذ وقت مبكر وقبل قيام الدولة، على قاعدة ان المنظمة ستضمحل مع قيام اسرائيل وتزول الحاجة اليها، وتصبح اسرائيل هي دائرة الاستقطاب والالتفاف اليه ودي، وكان بن جوريون يهدف الى التخلص نهائيا من المنظمة الصهيونية.

مقابل موقف بن جوريون القائل بانتهاء دور المنظمة الصهيونية، كان موقف ناحوم جولدمان رئيس المنظمة، الذي اعتبر ان بناء اسرائيل لم ينته بعد وانها مازالت تحتاج الى السقالة التي رغب بن جوريون بهدمها. ويقول بن جوريون في مذكراته «لدى اعلان قيام دولة اسرائيل ومجيء دافيد بن جوريون على رأس حكومتها، جرى حرمان المنظمة الصهيونية من كل نفوذ في السياسة الاسرائيلية». ومن جهته نادى جولدمان بعدم الفصل بين السلطات والصلاحيات بين حكومة اسرائيل والمنظمة الصهيونية العالمية. ويبرر ذلك على أساس الوضع الخاص للدولة اليهودية قائلا «مع انني لم اطالب ابدا، كما

فعل العديد من زملائي، باعطاء اللجنة التنفيذية الصهيونية صوتا في تعزيز السياسة الاسرائيلية ». فما زلت اعتقد بأن الاصرار على السيادة المطلقة لاسرائيل، رغم ما يكتنفه من ضرورة شكلية، لا يتصف بشيء من الحكمة عندما يتم تطبيقه على السياسة العملية ». وقد طالب جولدمان ان تمنح المنظمة الصهيونية صوتا استشاريا في شؤون اسرائيل الحيوية على الأقل، دون ان ينجح في ذلك.

لم ينجح جولدمان باثبات دور للمنظمة الصهيونية تحت حجة ان المشروع الصهيوني لم يستكمل بقيام اسرائيل، وانها مجرد محطة اولى يجب استكمالها، ولكن رأى الكثيرون ان لاستمرار المنظمة الصهيونية في عملها دورا كبيرا في ترسيخ اركان اسرائيل وكذلك لم ينجح بن جوريون في التخلص نهائيا من المنظمة الصهيونية، لكنه نجح في تحويلها الى أداة في يد الحكومة الاسرائيلية. ونجح بن جوريون في فرض مركزية اسرائيل في العمل الصهيوني، وحصر عمل المنظمة الصهيونية العالمية بمساعدة دولة اسرائيل.

فقد تم تقاسم العمل بين الحكومة الاسرائيلية والمنظمة العالمية، من خلال تأكيد كل منهما على تعلقها بالمهمة الصهيونية الرئيسية. فان الأولى تأخذ على عاتقها مسألة توجيه الحركة الصهيونية بشكل حاسم. وبالمقابل اعلان زعماء المنظمة الصهيونية العالمية تأييد الحكومة الاسرائيلية الذي اصبح شرطا اساسيا لنجاح جهودهم في بناء الصهيونية. وتحقق في ضوء هذا التطور ذلك المفهوم الذي تبناه هرتزل عن « الوكيل المفوض »، فأصبحت حكومة اسرائيل « وكيل » اليهود، بينما تمثل المنظمة الصهيونية أكثرية « الشعب المفوض ».

خلال الصراع، بقيت المنظمة الصهيونية تتراجع امام اسرائيل، الى ان اصبحت أداة في يدها، بما يحقق لاسرائيل مبتغاها، وللصهيونيين في الخارج « راحة الضمير » دون ان

يلتزموا املاءات مقولاتها وقراراتها. وظلت المنظمة الصهيونية تقوم بمهمات في اسرائيل والخارج مع نوع دعم الهجرة، والتمويل، والتثقيف، الدعم السياسي، والنشاط الإعلامي.

لقد وضع المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون في يونيو ١٩٦٨ حداً لهذا الصراع، ففي جميع المؤتمرات السابقة أطلت المفاهيم المتصارعة لدى المعسكرين بأشكال جيدة. فمن جهة أكدت المنظمة ضرورة تجديد حيويتها المفقودة منذ تأسيس الدولة مشددة على أهمية استمرار وازدهار يهود المنفى، ليشكلوا «الدرع الواقي لاسرائيل» والمعين المغذي لها في الخارج» ضمن هدف شامل عنوانه «تأمين بقاء الشعب اليهودي».

ومن جهة ثانية اصرت اسرائيل على ان القضية الاساسية ليهود العالم وللمنظمة الصهيونية بالتالي، هي تقوية اسرائيل بالهجرة اليها لا بتهجير الأموال اليها فحسب، وعلى اساس «مركزية اسرائيل» في كل الأمور، لأن ذلك هو الكفيل بضمان «بقاء الشعب اليهودي في العالم اجمع». حسم المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون عام ١٩٦٨ هذا الصراع على قاعدة «مركزية اسرائيل» عندما نص برنامجه على ان «اهداف الصهيونية هي وحدة الشعب اليهودي، ومركزية ارض اسرائيل، وجمع الشعب اليهودي في وطنه التاريخي عن طريق الهجرة من كل البقاع، وتقوية دولة اسرائيل القائمة على مثل الأنبياء في العدالة والسلام والمحافظة على أصالة الشعب اليهودي بتنمية التعليم اليهودي واللغة العبرية وبث القيم الروحية والثقافية اليهودية».

يمكن القول انه منذ خسارة جولدمان للصراع بين المنظمة الصهيونية وحكومة اسرائيل، بدت المنظمة راضية تماما عن دورها كتابع لاسرائيل مهمته تقديم المساعدات المالية والبشرية والإعلامية والسياسية عبر أجهزتها وأجهزة الوكالة اليهودية

الموسعة الجديدة التي تم توسيعها في عام ١٩٧٢، دون ان يطمح ذلك التابع الى موقع الند المشارك لاسرائيل في المسؤولية.

منذ الستينات ولدت في اسرائيل وجهة نظر تحاول اعادة النظر بالصهيونية وبطبيعة اسرائيل، وقد عبر يوري افنيري في وقت مبكر عن وجهة النظر هذه، معتبراً انه «مع استقلال اسرائيل ماتت الحركة الصهيونية ميتة طبيعية، وهي تحيا حياة وهمية. كتب هذا الكلام في اواسط الستينات. تستخدم لجمع المال وتعبئة الرأي العام الى جانب اسرائيل». لقد وصلت الصهيونية الى نهاية الشوط كحركة هجرة عالمية لاسرائيل. ويجب اعادة النظر في الايديولوجيا الصهيونية التي تقوم على الأسس التالية:

- ان يهود العالم كله يشكلون أمة واحدة.
- دولة اسرائيل دولة يهودية معدة ليهود العالم كله.
- تشتت اليهود مؤقت، ولابد لهم من الهجرة الى اسرائيل عاجلا أم آجلا. وان هذا الافتراض هو مبرر الدولة، وينبغي تسخير كل الامكانيات لهذا الاحتمال.

إن هذه الأيديولوجيا الصهيونية بحاجة الى مراجعة، حسب يوري افنيري فكتب «لسنا صهيونيين: لسنا مع الصهيونيين ولا ضدهم. إننا نرى في الصهيونية حطاما من الماضي، حركة كبيرة انتهى دورها التاريخي تاركة ارثا ايجابيا في أحد وجهيه، وسلبيا في الوجه الآخر. نحن اسرائيليون، نواجه مختلف جوانب حياتنا الوطنية بهذا المنظار. يفرض علينا هذا التعريف اعادة النظر بموقفنا تجاه يهود الخارج».

إن هذا التيار المعارض لصهيونية الدولة أخذ في النمو منذ ذلك الحين، وان كان نموه بطيئا. كما نما في السنوات الماضية ما يسمونه في اسرائيل تيار «المؤرخون الجدد» الذين يعيدون النظر في الأساطير المؤسسة لدولة اسرائيل، ويعيدون النظر في الرواية الرسمية الاسرائيلية لتاريخ الصراع.

ويعبر جرشون شافير عن هذه النظرة الجديدة ودلالاتها بالقول: ان الصرح المؤسساتي الذي أوجدته «حركة العمل» حول الهستدروت، ودولة الرفاه عامة التي انجرت عنه، بات ينظر اليهما من جانب الشرائح الاقتصادية والمهنية الجديدة بوصفهما عائقا أمام رفاهها وازدهارها. وعلى نحو مماثل، فان الروح الاستيطانية والمؤسسات الاجتماعية المنبثقة منها. التي كانت أمراً حيوياً لدولة اسرائيل ولبناء الأمة، مدت «حركة العمل» بالكثير من هويتها ومميزاتها وسيطرتها. أضحت شيئا من مخلفات الماضي وعائقا أمام المصالح الاقتصادية والسياسية لتلك الشرائح. لكن ايديولوجيا الاستيطان هي التي بررت في الماضي نزع الشرعية عن حقوق الفلسطينيين الوطنية. لذا، فان تدهور هذه الايديولوجيا بالتدريج، والقلق حيال الاساطير التي حلت محلها، والتوسع البطيء لكن المستمر لخطاب أكثر ليبرالية نجم عنه التأريخ الجديد ذاته، كل ذلك كان له أثر في حمل الدولة الاسرائيلية على الاعتدال في معارضتها للوطنية الفلسطينية، وعلى وضع علامة استفهام فوق الحكمة الكامنة في التوسع الجغرافي. وتحت تأثير هذه النخب انتهت مرحلة بناء الدولة بالنسبة الى معظم الاسرائيليين. وهكذا، دخلت اسرائيل، في واقع الأمر، مرحلة ما بعد الصهيونية، حيث من الأرجح ان ينظر الى جميع القيم التقليدية للمجتمع الاستعماري. ولاسيما الاستيطان والخدمة العسكرية الطويلة الأمد ولربما الهجرة ايضا. بوصفها عوائق لا ضرورة لها بالنسبة الى افراد في مجتمع لم يعد يحيا تحت خطر الحرب.

اذا كان من الصحيح ان قيام اسرائيل كان تجسيداً للمشروع الصهيوني، فانه من الصحيح ايضا ان هذا التجسيد كان أقل من الطموح الى حد كبير، لذلك، هناك في اسرائيل من يعتبر ان المشروع الصهيوني مازال بحاجة الى استكمال كما يدعو اليمين القومي في اسرائيل. فرغم الانجاز الهام للصهيونية باقامة دولة

اسرائيل، إلا ان الصهيونية فشلت في تحقيق حشد اليهود في دولة اسرائيل، كما فشلت في ان تكون اسرائيل المكان الأكثر راحة وأمنًا وسعادة لليهود.

إن الاسطورة التي استطاعت في النصف الأول من هذا القرن ان تجسد نفسها في دولة، قد أفرزت العدوانية والعنصرية من أجل استكمال هذا المشروع الذي أخذ يصطدم بمجموعة من العوائق الموضوعية التي وضعت الأيديولوجيا الصهيونية في موقع الشك، والشك في قدرتها على استكمال مشروعها كما يتمنى غلاتها. وأبرز هذه العوامل:

● تراجع قدرة اسرائيل على التوسع واحتلال الأرض وطرد السكان، وكانت تجربة الاحتلال الاسرائيلي لأراضي ١٩٦٧ المثال الحي على ذلك. فقد فشل الاحتلال الاسرائيلي في تفريغ الاراضي المحتلة من السكان، ولم تتكرر سابقة ١٩٤٨، رغم كل المحاولات الاسرائيلية لطرد السكان.

كما فشل المشروع الاستيطاني في الاراضي المحتلة بالمعنى الفعلي رغم كل الاجراءات الاسرائيلية والاغراءات التي قدمت للمستوطنين من أجل السكن في الاراضي المحتلة، ورغم كل المخاطر التي يشكلها هذا الاستيطان. فعلى مدى الثلاثين عاما الماضية، ورغم حملات الاستيطان المكثفة، إلا ان الانجاز الاستيطاني كان متواضعا، بحيث يشكل المستوطنون نسبة ضئيلة بالنسبة للسكان الفلسطينيين. باستثناء القدس الشرقية. فعددهم في أحسن الأحوال لا يتجاوز ١٤٠ الف مستوطن بين حوالي مليوني فلسطيني.

● اذا كان قيام دولة اسرائيل قد تمت تغطيته عبر الشرعية الدولية بقرار التقسيم الصادر في عام ١٩٤٧، وقد سمحت الظروف الدولية بذلك في حينها، مما شرع اقامة الدولة، لكن الواقع التوسعي الذي قام بعد ١٩٦٧ لم يتم تشريعه، ولا يبدو ان ذلك ممكنا في الأفق. بذلك ظل الاحتلال الاسرائيلي للضفة

الغربية وغزة غير مشروع من وجهة النظر الدولية بكافة المعاني.
ومع بدء العملية السلمية فان المشروع الصهيوني أخذ بالتراجع، لأن هناك اراض لابد من اعادتها لأصحابها، بصرف النظر عن حجمها وعن عدالة ما يمكن انجازه، إلا ان المعنى العميق لما يجري هو انكفاء المشروع الصهيوني، داخل حدود أقل مما يسيطر عليها الآن.

● إن اليهودي الساعي الى الهجرة من أي بلد، ليست اسرائيل أولوياته، انما الولايات المتحدة، فاسرائيل لم تعد تشكل حالة استقطاب للمهاجرين اليهود. وهذا ما دلت عليه الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفييتي السابق، حيث رغب المهاجرون في التوجه الى الولايات المتحدة، وتم اغلاق ابواب الولايات المتحدة في وجوههم ليتوجهوا الى اسرائيل. ان اسرائيل ليست البلد الأكثر راحة لليهود، فيهود الولايات المتحدة لا يفكرون في الهجرة الى اسرائيل، وقد قاتلوا تاريخيا من أجل عدم الربط الإجباري بين التأييد لاسرائيل والهجرة لاسرائيل، وهم خارج اسرائيل أكثر راحة وعددهم أكبر من عدد سكان اسرائيل.

● العامل الرئيسي الآخر الذي يشكل قلقا لاسرائيل، هو تراجع عدد اليهود في العالم. ولأن الدين اليهودي دين غير تبشيري، فان الأديان الأخرى تكتسب منه واللامتدينون يكسبون منه وهو الخاسر الوحيد. فقد تراجع عدد اليهود في العالم من ١٧ مليونا في الستينات حسب التقديرات الى ١٣ مليونا في العام الحالي. وكان هذا الموضوع موضع نقاش في لجنة تم تشكيلها حديثا في اسرائيل لمراجعة موضوع هذا التراجع.

إن الصهيونية قامت ارتباطاً بحل «المشكلة اليهودية» لتخليص اليهود وانقاذهم من معاناتهم، والآن في نهاية القرن العشرين من المضحك الاستماع الى داعية صهيوني يتحدث عن معاناة اليهود، فأوضاعهم في كثير من البلدان أفضل من أوضاعهم في اسرائيل ذاتها.

لقد جلبت الصهيونية الكوارث الى المنطقة من خلال العدوانية والعنصرية، وان الحالة الأمثل لتحقيق السلام في المنطقة، هي ان يحيا اليهود حياة طبيعية في المنطقة، بالتخلي عن صهيونية اسرائيل.

الفصل الرابع

جذور العنصرية الصهيونية

■ عبدالعال الباقوري

الفصل الرابع

جذور العنصرية الصهيونية

عبدالعال الباقوري

العنصرية الصهيونية وعنصرية الكيان الصهيوني واحد من الموضوعات الاساسية في الكتابات العربية، بعامة، عن اسرائيل والصهيونية. وربما لايوجد موضوع حظي بكمّ الكتابات العربية التي حظي بها هذا الموضوع. وقد تعددت اوجه معالجته، البعض منا تناوله من الجانب الديني، بحثا وتنقيبا في التلمود وحتى في التوراة، ثم في القرآن الكريم. ونسي هؤلاء انهم، مهما حسنت مزاياهم، يقعون في خطأ يصب في النهاية في مصلحة العدو، فلو تحدثنا بمنطق ان «يهود اليوم» يعيشون بالاغتصاب والعدوان في فلسطين، هم امتداد ليهود الأمس، لاسباط وبني اسرائيل، فان هذا المنطق يصب في طاحونة الفكرة الصهيونية التي تقوم على ماتسميه «وحدة الشعب اليهودي»، بكل مايترتب ويتفرع عن ذلك من نتائج، وهي - عند التحليل الاخير - نتائج خطيرة. البعض الآخر من الكتاب والمتخصصين العرب حاول ان يدلل على عنصرية الصهيونية واسرائيل بجمع ورص عشرات من البيانات والكلمات والأقوال التي أدلى بها الزعماء والمفكرون والكتاب والزعماء الصهاينة من هرتزل الى نتانياهو. ولكن الفريق الثالث هو الذي اتبع النهج التحليلي الواقعي، فجمع بين التاريخ والاقوال والأفعال، باحثا في «الشخصية الصهيونية او حتى في «الشخصية الاسرائيلية»، وكيف مارست العنصرية بشكل عملي وفج وخطير ضدنا نحن العرب، فلسطينيين وغير فلسطينيين. ان الصهيوني الحقيقي،

الصهيوني الكامل والخالص، هو الذي يؤمن بان «العربي الجيد هو العربي الميت»، ومن ثم فانه يتساءل مع جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل في النصف الاول من السبعينات: «من هو شعب فلسطين؟ لا اعرف شعبا بهذا الاسم». فالصهيونية - فكرة وممارسة - تقوم على تغييب وإنكار الآخر، أي انكارنا نحن العرب وذلك منذ رأوا ان فلسطين ارض بلا شعب».

ومن أسف اننا لم نتعمق في دراسة وبحث وفحص «العقل الصهيوني». وكثير منا نحن العرب يظن ان نظرة الصهاينة الى فلسطين على انها ارض بلا شعب هي «نظرة كلامية»، ويتجاهلون ان الصهاينة كانوا يعتقدون في ذلك ويؤمنون به، وكان اعتقادهم في ذلك راسخا.

وبعضهم في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين، فوجئ عند هجرته الى فلسطين بانها ارض مسكونة، وان هناك «ناسا» يعيشون عليها. ونفر من هؤلاء اصيب بـ «لخبطة»، وآخرون اصيبوا بخيبة أمل، وفريق ثالث رأى ألا يعبأ بهذا الشعب الفلسطيني، وينظر اليه على انه غير موجود. ومن أوتي من هؤلاء قدرا من الاتساق مع الذات اضطر الى العودة من حيث أتى، وهؤلاء نادرون جدا بين الصهاينة. ونادر مثلهم من الصهاينة من استنكر الاساليب الصهيونية في غزو فلسطين واستعمارها، وفضل البقاء على الأرض المغتصبة، ثم خرج علينا ليزعم انه من انصار «السلام» و «دعاة التسوية». والنموذج المجسم لذلك هو يوري افنيرى.

إذن، الصهيوني الحقيقي، الكامل، الخالص هو - كما سبق القول - كائن بشري عنصري عدواني، لا يكف عن ممارسة عدوانيته ضد عدوه العربي. وكل يوم يمر يكشف امامنا اشكالا جديدة من الممارسات العنصرية الصهيونية. واذا عرفنا عدونا على حقيقته، فان هذه الممارسات يجب ألا تهزنا، بل يجب، بدلا من ذلك ان تستفزنا فتدفعنا الى التفكير والعمل لكيفية اتقائها

والقضاء عليها. ولو اننا ادركنا حقيقة ماجرى وماحدث في صبرا وشاتيلا، واتخذنا مايجب اتخاذه من اجراءات واعمال، اي من رد فعل مضاد للفعل ومساوٍ له في القوة، لما واصلت اسرائيل ولما واصل الاسرائيليون اساليبهم العنصرية ضدنا، والتي كان من آخرها اتخاذ مواطنين عربا فلسطينيين حقول تجارب لأدوية خطيرة تعرض حياتهم للخطر، ومنح شركات ادوية اسرائيل التراخيص اللازمة، وربما القانونية، للقيام بذلك!!.

ومثل هذا التصرف العدواني العنصري تصرف متكرر وسلوك شبه ثابت من قبل الصهاينة ضد العرب، العرب عامة والفلسطينيين خاصة. ولعل الكراهية العميقة والحقد الاعمى الذي يكنه الصهاينة، في اسرائيل وفي خارجها، للفيلسوف المعروف رجاء جارودي يرجع الى تركيزه على هذه الفكرة، والى تأكيده ان التصرف العنصري تصرف «أصيل» و «راسخ» في العقل الصهيوني. واذا كان الصهاينة قد وجدوا ماقد يختصمون فيه مع جارودي فان شخصا آخر من بني ديانتهم قد تفوق على جارودي في تعميق هذه الفكرة، وهو الدكتور اسرائيل شاحاك الذي يشن منذ عام ١٩٦٨ حربا شعواء ضد «عنصرية دولة اسرائيل»، وهذا عنوان احد كتبه. ولكن اهم وأخطر ما كتب شاحاك هو كتابه الذي توجد له أكثر من ترجمة بالعربية وهو عن التاريخ اليهودي والديانة اليهودية. ان شاحاك يطلعنا على ما لم يطلعنا عليه احد من قبل، من عنصرية اسرائيل والصهيونية. انه يغوص في الاعماق، ويفضح ويكشف ما لم يفضحه او يكشفه احد آخر ولو ان انسانا غير يهودي، كتب بعض ماكتب شاحاك فان اقل تهمة كان سيلقاها من الصهاينة هي تهمة النازية. وان كان بعض الاسرائيليين لم يتردد في اتهامه بمعاداة بني جنسه، ودعوته الى الخروج من اسرائيل، لانه عار عليها!. وجاء في احدى هذه الدعوات: «اننا نناشد الطلاب مقاطعة محاضراته.. (اي محاضرات شاحاك في علم الكيمياء العضوية

في الجامعة العبرية، في القدس) ونطالب الجامعة بفصل هذا الملحد والمدنس للمقدسات ونطالب زملاءه بمقاطعته وانت ياشاحاك، ماذا تفعل في بلادنا، اذهب وغير اسمك اسرائيل الذي يدنس ارض اسرائيل».

ومن المثير للأسف، بل وللأسى، ان كتابات شاحاك ليست شائعة ولا منتشرة في الوطن العربي بالقدر الذي تستحقه، وهي كتابات تبين ان «المؤسسة الصهيونية«: الكيان والمنظمة، قد جعلت العرب فئران تجارب لأساليبهم العنصرية. ولا بأس هنا، لتبيان ذلك من ان نستعرض صفحات من كتاب شاحاك عن «التاريخ اليهودي والدين اليهودي» وهي صفحات تتحدث عما يسمى «طهارة السلاح» ومدى شرعية قتل المدنيين.

تحت عنوان: «القتل وابادة الجنس» يقول شاحاك ان العديد من المفسرين الدينيين (اليهود) توصلوا الى نتيجة تقول: انه في حالة الحرب، يمكن، او حتى يجب قتل جميع المنتسبين الى شعب معاد. ويلاحظ شاحاك انه منذ عام ١٩٧٣، اذيعت هذه العقيدة على نطاق واسع لارشاد الجنود المتدينين. وتم نشر هذا بشكل رسمي في كتيب صادر عن قيادة المنطقة الوسطى في الجيش الاسرائيلي. في هذا الكتيب، كتب الكاهن الاول في القيادة: «عندما تلتقي قواتنا بمدنيين خلال الحرب او خلال ملاحقة ساخنة او غزو، ولم يكن مؤكدا ان اولئك المدنيين غير قادرين على ايذاء قواتنا، فوفق احكام الهالاخاة(= الشريعة) يمكن، بل يجب قتلهم.. والثقة بعربي غير جائزة في أي ظرف حتى اذا أعطى انطباعا بأنه متحضر في الحرب، عندما تهاجم قواتنا العدو، فانه مصرح لها، بل هي مأمورة وفق احكام الهالاخاة، بان تقتل حتى المدنيين الطيبين، اي الذين يبدو ظاهريا، انهم طيبون».

ثم يذكر شاحاك ان هذه العقيدة مشروحة في رسائل متبادلة بين جندي اسرائيلي شاب وحاخامه، وقد نشرت في الكتاب

السنوي لاحدى اهم الكليات الدينية في اسرائيل، وهي كلية «ميدراشيات نوعام» التي تلقى تعليمهم فيها قادة ونشطاء الحزب القومي الديني (المفدال) وجوش ايمونيم، اي كتلة الايمان. ويسجل شاحاك ملاحظة مهمة وهي ان هذا الكتاب السنوي يصدر باللغات العبرية والانجليزية والفرنسية، ولكن الرسائل التي يذكرها والمتبادلة بين الجندي والحاخام واردة فقط في الطبعة العبرية. اذن ماذا تقول هذه الرسائل؟

الرسالة الاولى من الجندي موشيه الى الحاخام شيمون ويزر، وفيها يقول الجندي:

في احدى المباحثات في مجموعتنا، ثار الجدل حول «طهارة السلاح». وبحثنا ماذا كان مسموحا قتل الرجال غير المسلحين، او النساء والأطفال، او ربما الانتقام من العرب؟. وعندها اجاب كل واحد حسب معلوماته، لم استطع التوصل الى قرار واضح، عما اذا كان يجب ان يعامل العرب كالعماليق، أي ان المرء مسموح له ان يقتلهم حتى يمحى ذكرهم تحت السماء، او انه يتوجب شن حرب عادلة، أي ان يقتل المرء الجنود فقط؟

ويمضي الجندي الاسرائيلي في رسالته عارضا على الحاخام مشكلة ثابتة، وهي «هل يسمح لي ان اعرض نفسي للخطر بابقاء امرأة حية؟. فقد كانت هناك حالات ألقت النسوة فيها قنابل. او هل يسمح لي بأن اعطي العرب الذين يرفعون ايديهم ماءً؟، لأنه قد يوجد سبب للخوف من انهم يقصدون خداعنا، وسيقتلوننا. وقد حصلت حوادث عديدة».

رد الحاخام على الجندي موشيه ردا مطولا ومفصلا وعرض فيه وجهات نظر مختلفة في القضايا التي طرح الجندي اسئلته حولها. ولكن المثير في الأمر هو فهم الجندي لرسالة حاخامة، وهو ماأوضحه موشيه في رسالة بعث بها الى الحاخام شيمون ويزر. ويورد شاحاك نص هذه الرسالة وهو:

الى صاحب الشرف، حاخامي العزيز.

أولا، آمل ان تكون وعائلتك بصحة جيدة، والكل بخير.

تسلمت رسالتك الطويلة، وانا ممتن لرعايتك الشخصية لي، لأني اعلم انك تكتب لكثيرين، ومعظم وقتك مستغرق في دراسة برنامجك الخاص، لذا شكري لك عميق جدا.

اما بالنسبة للرسالة فقد فهمتها كما يلي:

خلال الحرب، ليس مصرحا لي فحسب، بل مأمور بان اقتل اي عربي اصادفه، رجلا كان او امرأة، اذا كان هناك سبب للخوف من ان يساعدوا في الحرب ضدنا، مباشرة او مداورة. الأمر الذي يهمني هو انه عليّ ان اقتلهم ولو كان ذلك يتعارض مع القانون العسكري. اعتقد ان مسألة طهارة السلاح هذه يجب ان تحال الى المعاهد التعليمية، وفي الأقل الدينية منها، كي تحدد موقفا من هذا الموضوع ولا نتوه في حقل «المنطق» الواسع، وخاصة حول هذا الموضوع. وينبغي ايضا شرح الاحكام كما يجب تطبيقها في الممارسة، لأني - وآسف لقول هذا - سمعت انواعا مختلفة من «المنطق» من رفاقي المتدينين. أمل ان تنشط بالنسبة لهذا الموضوع، حتى يتعلم اولادنا خط اسلافهم بوضوح ومن دون لبس».

هذه، في الحقيقة، جذور العنصرية الصهيونية، كما اوضحها كثيرون، ولكن شاحاك تفوق عليهم جميعا، سواء في ممارساته دفاعا عن حقوق الانسان، او كتاباته التي تضرب في العمق، وتغوص في الاحشاء، احشاء الكيان الصهيوني، والفكر الصهيوني ايضا. ومن ثم يبدو طبيعيا جدا تصرف جولدا مائير حينما قالت انها تصحو كل صباح لتفكر في عدد الأطفال العرب الذين ولدوا في الليلة الماضية، وقالت ان الحل للتغلب على هذه الولادات، يكمن في توسيع حدود «اسرائيل»، وفي سبيل هذا التوسع فان اسرائيل تمارس ابشع واسوأ اشكال العنصرية، لايمانها بان مثل هذا التوسع لن يتم الا على جثث العرب، فهذا هو الطريق الذي رسمه آباء الصهيونية من هرتزل وحتى اليوم.

واسرائيل تتحدى، فمن يجرؤ على الكلام؟ ذلك السؤال - الصرخة أطلقه البرلماني الأمريكي بول فيندلي في وجه أبناء شعبه، فابتلعوا السؤال، وذهبت الصرخة في البرية دون جواب إلا بالسلب والنقيض، والمزيد من الحماية للتوسع الصهيوني وللعنصرية الصهيونية. والأحداث شاهدة والحقائق ماثلة تفقأ عيون الجميع. في نوفمبر ١٩٧٥، أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارها الذي وصف الصهيونية بأنها «شكل من أشكال العنصرية». كان الوصف صحيحا والتوصيف قريبا من الدقة، لأنه لو أردنا التدقيق والتحقيق لقلنا ان الصهيونية هي العنصرية، عنصرية النصف الثاني من القرن العشرين، دون مراء أو خداع. ولكن قرار الجمعية العامة أغضب الصهيونية وكيانها، كما أغضب راعيهما الأمريكي، الذي أقسم منذ ذلك اليوم انه لن يهدأ له بال، ولن يرتاح له خاطر، ولن يقر له قرار حتى يتم اسقاط وصف الصهيونية بالعنصرية، في هذا التنظيم الدولي الرئيسي.

وجمعت الخارجية الأمريكية كل قواها، واستجمع البيت الأبيض كل عزيمته. وفي ١٦ ديسمبر ١٩٩١ - نعم وبالطبع ١٩٩١ - تم تراجع الجمعية العامة للأمم المتحدة عن قرارها. وأصبحت الصهيونية بريئة من العنصرية - في هذا المحفل الدولي - براءة الذئب من دم ابن يعقوب. وقد تم كل هذا في وقت ارتفع فيه وطغى حديث الشرعية الدولية وهي على الأرجح شرعية من طراز خاص بحماية الصهيونية وكيانها، وباسقاط حقوق العرب وفلسطينهم وإهدار دمهم. وفي سبيل ان تظل راية الصهيونية وكيانها مرفوعة وخفاقة، مع اغضاء البصر عمدا عن كل الممارسات الصهيونية العنصرية، وهي ممارسات تفوقت - في ظل الحماية الأمريكية - على ممارسات النازية والفاشية، التي تعلمت منهما الصهيونية الكثير، ثم فاقتهما في الكذب والادعاء، مما جعل كثيرين لايكتشفون طبيعة وحقيقة، هذه

الممارسات، التي تتكرر بشكل يومي في داخل الأراضي العربية المحتلة سواء منذ عام ١٩٤٨ أو منذ عام ١٩٦٧. ان غض البصر عن هذه الممارسات سيدفع من يمارسونه ثمنه غاليا، وفي وقت غير بعيد. ولم تقتصر هذه الممارسات على تحويل بعض العرب والفلسطينيين الى فئران تجارب لشركات الأدوية الاسرائيلية، فقد سبقت ذلك عمليات عنصرية عديدة مثل اجهاض الحوامل، ورش مواد سامة على ملابس تلميذات المدارس، وتسميم مياه الشرب فضلا عن التعذيب غير البشري في السجون ضد المعتقلين والسجناء، ثم قتل الأسرى، كما تبين من اعترافات وشهادات أدلى بها قادة صهاينة وقالوا فيها انهم قتلوا أسرى مصريين أثناء عدواني ١٩٥٦ و١٩٦٧.

في ٤ أغسطس نشرت صحيفة «معاريف» تحقيقا بعنوان «قتل جماعي» اعترف فيه العقيد (احتياط) داني وولف بقتل عمال تراحيل مصريين في اليوم الثاني من العدوان الثلاثي في عام ١٩٥٦. ونقلت الصحيفة عنه قوله:

«كانوا ٢٠ أو ٣٥ شخصا. لا أتذكر عددهم بالضبط. كانوا جميعا يرتدون جلابيب بيضاء. كانوا يعملون في تعبيد الطرق. كانوا بؤساء، يؤدون العمل الصعب في قلب الصحراء، كانوا يتأوهون من الجوع والعطش. نظريا، كان يمكن إبقاؤهم في أماكنهم مع قليل من المياه والطعام. ولكن الحقيقة ان المياه لم تكن تكفينا نحن، وحتى لا تفهم خطأ، أنا لا أحاول البحث الآن عن مبررات لما فعلنا. ولكن، في الحقيقة، لم يكن هناك ما يمكن أن نفعله مع هؤلاء العمال. كنا نتأهب للتحرك، فقد تلقينا أمرا بالتقدم الى الأمام، وهم معنا في وسطنا. لم يكن في الحسبان أن نطلق سراحهم، لأن آخر شيء يريده أي واحد منا هو أن نقدم للمصريين معلومات مجانية حتى يعثروا علينا وينقضوا على قواتنا.. لقد قذفوا بنا - نحن القوة ٨٩٠ - على بعد مئات الكيلومترات من الحدود، في قلب أرض العدو. وبدون أي

تعزيزات أو أي شيء. انه موقف غير سهل. أنا شخصيا ما كنت أطلق رصاصة واحدة على هؤلاء العمال، حتى في الموقف الذي كنا فيه. ولكن حدث أن البعض أطلق النار».

وكان قائد الكتيبة الذي أصدر الأمر باطلاق النار هو رفائيل ايتان الذي أصبح بعد ذلك رئيسا للأركان أثناء غزو لبنان عام ١٩٨٢، وهو أحد المسؤولين عن مجزرة صبرا وشاتيلا، ثم أصبح وزيرا في وزارة نتانياهو، وقال قولته البذيئة والوقحة التي وصف فيها العرب بأنهم «مجرد صراصير سامة».

وسجل العنصرية الصهيونية طويل طويل، وشواهده عديدة وشهوده عديدون، وهو لم يبدأ مع وصول الصهاينة الى أرضنا، بل بدأ منذ كانت الحركة الصهيونية ومنظمتها مجرد فكرة في عقل تيودور هرتزل، وفي مذكراته عشرات بل مئات الصفحات التي تنضح بالعنصرية المقيتة ضد العرب والفلسطينيين. فقد كتب هرتزل في مذكراته في ١٢ يونيو ١٨٩٥ عن نواياه ضد الأصحاب الشرعيين للبلاد التي يريد استعمارها، كتب مايلي:

«اذا رحلنا الى منطقة فيها من الحيوانات البرية ما ليس اليهود متعودين عليها، مثل الأفاعي الكبيرة وغيرها، سأستخدم أهل البلاد - قبل أن أعطيهم أعمالا في البلاد المجاورة - ليقضوا على مثل هذه الحيوانات جوائز كبيرة لمن يأتي بجلود الأفاعي وبيعها الخ».

وفي ٢٣ يوليو من العام نفسه، سجل هرتزل في مذكراته مايلي:

«ليكن السير في مناطق الأوبئة سريعا، وفي مثل هذه المناطق يجب ان يكون العمال على السكك الحديدية والطرق من أهالي البلاد، وكذلك عند تجفيف المستنقعات فيما بعد، لأن أهل البلاد متعودون على هذا الطقس، وإلا كثرت نسبة الموت بيننا مما يسيء الى معنويات الشعب الذي يكون على أية حال خائفا من الأمر المجهول».

وفي اكتوبر ١٨٩٨، زار هرتزل فلسطين، حيث علم أن المرض يفتك بالمهاجرين الصهاينة، فقرر أن يعهد بالأعمال التي تُعرض أصحابها للخطر، الى العرب بدعوى أن لديهم مناعة ضد هذه الأمراض!.

هل هناك عنصرية اكثر من هذا. واذا لم تكن هذه هي العنصرية فماذا تكون؟.

لقد كان هرتزل، وبحق، هو الصهيوني العنصري الأول، وقد سار الباقون على دربه من وايزمان وماكس نوردو وجابوتنسكي وبن جوريون ومناحيم بيجين وعشرات غيرهم بل المئات من السياسيين والعسكريين الصهاينة، فمنهم من وضع الأسس النظرية لهذه العنصرية الصهيونية، ومنهم من قام بتطبيقها. لكن الملاحظ، انه مع مضي السنين، تتفوق الصهيونية ويتفوق الصهاينة على أنفسهم في الممارسة العملية. انهم يكشفون عن وجههم الحقيقي والقبيح، فحين يشعرون بالقوة يكشفون عن حقيقتهم، ويرون أنهم لم يعودوا بحاجة الى خداع، ولا إلى كلام معسول. في هذه الحالة يرون انه ليس لديهم ما يخشونه، أو ما يخافونه، أو يخشون من أحد لمعرفته. ونستطيع أن نتأكد من صحة هذا الاستنتاج لو قارنا بين أقوال الصهاينة قبل عدوان يونيو وبعده، أو قبل كامب ديفيد وبعده، أو لو قمنا بعملية مسح شامل لمذكرات الزعماء الصهاينة، وكيف تعرى وجههم العنصري من زعيم لآخر أتى بعده. فمن المؤكد ان العنصرية في كتابات بيجين أكثر فجاجة مما هي عليه في كتابات بن جوريون، ولكنها في كتابات هذا الأخير، أوضح بكثير مما جاء في مذكرات حاييم وايزمان. وهكذا، كلما جاء زعيم صهيوني تفوق على من قبله في عنصريته أو في صهيونيته، فهما في الخطيئة سواء. ولعل هذا ما يتبدى واضحا من كتابات، أمثال مائير كاهانا وبنيامين نتانياهو. في كتابه «شوكة في عيونكم» تبدو العنصرية الصهيونية عند كاهانا واضحة كل الوضوح. انه يدعو

صراحة الى تطهير «أرض اسرائيل» من الدنس العربي. ويقول: «لايمكن أن يكون هناك آخرون يعيشون بحرية الى جانب الشعب الاسرائيلي في أرضه المختارة له، وأن يشاركوه في السيادة والملكية لهذه الأرض».

ثم يضيف كاهانا:

«ان (عرب اسرائيل) يشكلون تدنيس الله (المعصية) اذ أن عدم تسليم العرب بالسيادة اليهودية على «أرض اسرائيل» على الرغم من وجود العهد بين اليهود وبين رب «إسرائيل» يعتبر رفضا لسيادة الله رب «إسرائيل» وملكوته.

«لذا فان طردهم من البلاد هو عمل أكثر من كونه قضية سياسية، انه موضوع ديني، واجب ديني، أمر بإزالة المعصية.

وينهي كاهانا كتابه بالسطور الآتية: «بدل أن نخشى ردود فعل الغرباء اذا فعلنا ذلك (أي طرد العرب) يجب ان نرتعد خوفا من غضب الله اذا لم نفعل ذلك ونطرد العرب. سنواجه مأساة اذا لم نطرد العرب من البلاد. لذا هيا نطرد العرب من اسرائيل، ونكون قد جلبنا الخلاص لأنفسنا».

ولاتزال الكاهانية تعشش في اسرائيل وتتوالد، وليس نتانياهو إلا أحد فروعها، ان جوهر كتابه المترجم بعنوان «مكان تحت الشمس» يكمن في سطر يقول فيه: «ان من يحرم من حمل السيف، سرعان ما ينسى كيفية استخدامه». وكي لا ينسى استخدام سيفه فان نتانياهو يواصل استخدامه في الجسد العربي، وبعدما يزيد قليلا على العام من حكمه واصل الطريق العنصري أكثر من غيره من القادة الصهاينة. ومنطقه السياسي العنصري في ذلك واضح كل الوضوح، وقد أعلنه في حديث مع «هآرتس» في ٢٢ نوفمبر ١٩٩٦ بقوله: «ان القوة العسكرية شرط للسلام. وابراز قوة الردع بوضوح شديد هو وحده الكفيل بالمحافظة على السلام وتوطيده». موقف نتانياهو هو أن العرب لاترهبهم إلا القوة، ولايجوز التعامل معهم إلا باحتقارهم. هذه

هي قمة العنصرية، التي لايجوز ان نتعامل معها بمجرد تسجيلها وشجبها واستنكارها وادانتها. مثل هذا الأسلوب دليل على ان في حياتنا نحن العرب شيئا خطأ. ويجب ان نتجنب هذا الخطأ، ونتخلص منه. وطريق الخلاص هذا صعب وسهل في وقت واحد.

فقد ظن عدد من الكتاب العرب ان كتاب نتانياهو: «مكان بين الأمم» مجرد وثيقة فكرية، أيا كان قدرها من الهزال والضعف. وعلى هذا الأساس سارعوا يدبجون المقالات ويصدرون الكتب ردا على هذا الكتاب. وكفى الله العرب شر القتال. ان هذا فهم خاطىء، مغلوط ومقلوب، للكتاب والكاتب. «مكان تحت الشمس» هو، بالأساس، برنامج عمل، والرد الصحيح عليه يكون ببرنامج عمل مضاد. انه برنامج عمل صهيوني استعدادا للقرن الواحد والعشرين، فما احوجنا نحن العرب لبرنامج مشابه، برنامجنا نحن للقرن الواحد والعشرين.

وبالمثل فان العنصرية هي جوهر الصهيونية، لكن الرد عليها لايأتي بموقف عنصري مضاد، العكس صحيح اننا نحتاج الى بعث وكشف أنبل القيم في تراثنا وتاريخنا الذي لم يحتقر أحدا، بل قام على اساس تكريم الانسان، وعلى أننا جميعا لآدم.. وأن لنا في كل ذات كبد أجرا.

وان رجلا دخل الجنة لأنه سقى كلبا ظمآن.. اننا نقيضو الصهيونية خلقيا. فالصهيوني - كما مر بنا - رفض ان يسقي الأسير المصري المدني جرعة ماء. هذه هي الصهيونية التي تجعل شعبنا في فلسطين حقل تجارب لأدوية لم تجرب حتى على الحيوانات.. وبجانب ذلك، ومعه، يبقى ان في القصاص حياة، وأن السن بالسن، وانه اذا كان بنا قرح فلابد ان يلحق بالعدو قرح مثله. بهذا السرد الثنائي الأضلاع تنفر أفاعي هرتزل، وينكسر سيف نتانياهو، ويقاوم الكف العربي شوكة كاهانا.

الفصل الخامس

«المؤرخون الجدد» يفضحون جرائم الصهيونية وتاريخها «المزيف»

عبدالعال الباقوري

الفصل الخامس

«المؤرخون الجدد» يفضحون جرائم الصهيونية وتاريخها «المزيف»

عبدالعال الباقوري

■ منذ سنوات، تشهد «اسرائيل» ظاهرة علمية. فكرة جديدة. وكونها جديدة لايعني انها بدون سوابق. لقد كانت لها روافد وبدايات منذ انشاء الكيان الصهيوني، وربما منذ بدايات الحركة الصهيونية، فقد حذر «آحاد هاعام» مما سيرتكبه الصهاينة ضد العرب، أما يهودا ماجنيس. وهو أصلاً حاخام أمريكي - رئيس الجامعة العبرية «فانه كان من القلة الصهيونية النادرة التي تنبهت الى المخاطر التي تنطوي عليها اقامة الوطن اليهودي، فقد كان يعرف ان هناك شعباً عربياً فلسطينياً سيقاوم، وان الدولة التي أنشئت دون التعاون معه ستعيش في حالة حرب دائمة». وربما يدخل في هذا الاطار - بشكل أو بآخر - شخص مثل يوري افنيري.

ولكن هذه القلة النادرة في تاريخ الصهيونية، وهو الاستثناء الذي يثبت القاعدة. والقاعدة هنا تبدأ من نفس وجود شعب فلسطيني أصلاً. والنظر الى فلسطين على انها أرض بلا شعب، فالصهيونية قامت، وتقوم، على انها حركة تطور وطني، حركة تحرير من تسمية «الشعب اليهودي» واعادته الى ارضه ووطنه «الموعود»، وانها في سبيل ذلك لم ترتكب جريمة، ولم تقم بخطأ، ولم تلحق أذى بالفلسطينيين. ولم تتعامل معهم، منذ

البداية، كحركة استعمارية!

ذلك هو الركن الأساسي في الفكرة الصهيونية: انها حركة تحرر وطني وليست استعماراً، هكذا صورها وتصورها هيرتزل وموسى ميندلسون وناحوم سوكولوف وناحوم جولدمان وحاييم وايزمان والعشرات، وربما المئات، من الكُتّاب والمفكرين الصهاينة. ويندر - كما سبق القول - وجود صهيوني او اسرائيلي يعترف بالطابع الاستعماري للحركة الصهيونية، او يدين الأساليب الاستعمارية التي استخدمتها اسرائيل منذ انشائها، ويكفي ان نتذكر ان الصهاينة والاسرائيليين يصفون حرب ١٩٤٨ بأنها «حرب الاستقلال» ويضفون على دورهم في العدوان الثلاثي في عام ١٩٥٦ اسم «عملية قادش» كما يعتبرون عدوان ١٩٦٧ «حرباً وقائية» ويطلقون على حروبهم واعتداءاتهم الأخرى اسماء دفاعية، مثل «عملية الليطاني» و «عملية سلامة الجليل» و «عناقيد الغضب».

وفي هذا الاطار، ومن داخله تأتي الظاهرة العلمية - الفكرية الجديدة التي يمكن تلخيصها ابتداء بأنها «اعتراف بالطابع الاستعماري للحركة الصهيونية واسرائيل». وهي ظاهرة أصبحت معروفة باسم «المؤرخين الجدد» أساساً، ومعهم فريق من «علماء الاجتماع النقديين».

ترجع الظاهرة أساساً الى أواخر الثمانينات. البعض يحاول ان يربطها بعملية التسوية الفلسطينية - الاسرائيلية، والبعض يربطها أصلاً بكشف وثائق جديدة عن تاريخ السنوات الأولى من انشاء اسرائيل، وتصرفاتها واعمالها العدوانية، خلال هذه السنوات، مما دفع فريقاً من هؤلاء المؤرخين الى ان يفتحوا عيونهم، ويكشفوا عما اكتشفوه من «حقائق» ويذيعوها وينشروها.

ما يقوله «المؤرخون الجدد» و «علماء الاجتماع النقديون» من الاسرائيليين ليس جديداً علينا، ولا على أي باحث جاد منصف

لم يخضع للابتزاز الصهيوني، وكان هناك كوكبة من هؤلاء من «الكتاب السوفييت» كما كان هناك «آلان تايلور الأمريكي» وكتابه الرائع «المدخل الى اسرائيل»، وهناك دراسات ارسكين تاشيلدز وارنولد توييني وماكسيك رودنسون وغيرهم وغيرهم ممن رأوا وكتبوا ان «اسرائيل واقع استعماري».

ولكن أهمية هذه المدرسة الاسرائيلية ترجع الى انها قد تكون الأولى من نوعها، من حيث الاستمرارية، ومن حيث الكم من المؤرخين وعلماء الاجتماع الذين يشاركون فيها. وهي مدرسة جديرة بأن نتابعها، وقد يكون من المفيد ترجمة أعمالها الى اللغة العربية، لأنها تتضمن حقائق ومعلومات لا تتوفر فيما كتبناه او كتبه غيرنا عن اسرائيل والصهيونية، لأنها اعتمدت أساساً على الارشيف الصهيوني، وهو ارشيف كبير الثراء، ودقيق التنظيم.

ومع ذلك، فان التفاتنا الى هذه المدرسة لايزال محدوداً جدا، وباستثناء بعض المقالات العابرة، في هذه الصحيفة العربية أو تلك، فان أهم دراسة باللغة العربية حول هذا الموضوع، هي تلك التي نشرتها دورية «مجلة الدراسات الفلسطينية» في عددها التاسع والعشرين، في شتاء ١٩٩٧، والتي حملت عنوان: «علم الاجتماع النقدي وتصفية الواقع الاستعماري الاسرائيلي» والتي كتبها غرشون شافير، أستاذ علم الاجتماع في جامعة كاليفورنيا في سان دييجو، بأمريكا، وهو ينتمي الى «علماء الاجتماع النقديين»، وله مساهمة في هذا المجال صدرت في ١٩٨٩ بعنوان: «الأرض والعمل وجذور الصراع الاسرائيلي - الفلسطيني ١٨٨٢ - ١٩١٤» عن مطبعة جامعة كامبردج.

لا أريد أن أعرض ولا ان أنتقد دراسة غرشون شافير، ولكن يكفي ان استعير منه تعريفه لمدرسة المؤرخين الجدد، حيث يقول انه «اندلع في أواخر الثمانينات سجال مديد مداره «التاريخ الجديد» وهو مصطلح ابتكره المؤرخ بني موريس في مقالة مكتوبة بأسلوب بيان رسمي «مانيجستو» للاشارة الى اعمال

رائدة بأقلام جيل جديد من المؤرخين الاسرائيليين نضجت مداركهم في الفترة التي تلت حرب الأيام الستة». ويذكر غرشون من أعمال هؤلاء المؤرخين ما يلي:

- بني موريس: ميلاد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، ١٩٤٧ - ١٩٤٩ - مطبعة جامعة كامبردج، ١٩٨٧.
- آفي شاليم: تواطؤ عبر الأردن: الملك عبدالله والحركة الصهيونية وتقسيم فلسطين - مطبعة جامعة اوكسفورد، ١٩٨٨.
- ايلان بابيه: بريطانيا والصراع الاسرائيلي - العربي ١٩٤٨ - ١٩٥١، دار ماكميلان، في نيويرك ١٩٨٨.

ثم يضيف غرشون ان هذا التاريخ الجديد يركز «على الطابع الاستعماري للصهيونية. وقد بدأ بتقويض الآراء السائدة والمقبولة في كتابات المؤرخين التقليديين للحركة الصهيونية».

وفي عدد خاص صدر في ١٩٩٥ من مجلة «التاريخ والذاكرة» مخصص لتاريخ اسرائيل اعترفت الكاتبة انيتا شابيرا. كما يذكر غرشون، بأن استخدام النموذج الاستعماري في درس اسرائيل «شرعي ومرغوب فيه في آن واحد» وذلك لأن «تعريف حركة ما بأنها استعمارية - استيطانية يساهم ربما في توضيح العلاقات بين الأمة المستوطنة (بكسر الطاء) والأمة الأصلية».

أما علم الاجتماع النقدي فقد بلغ سن الرشد في اسرائيل مع «التأريخ الجديد» في وقت واحد تقريبا.

وعلى أية حال، فان أية رؤية موضوعية للأمور لا تبرر ادعاء غرشون بأن «الروح الاستيطانية والمؤسسات الاجتماعية المنبثقة منها. التي كانت أمراً حيوياً لدولة اسرائيل ولبناء الأمة ومدت «حركة العمل» بالكثير من هويتها ومميزاتها وسيطرتها. أضحت شيئا من مخلفات الماضي». وينطبق الحكم نفسه على مقولة: «وهكذا. دخلت اسرائيل، في واقع الأمر، مرحلة ما بعد الصهيونية. حيث من الأرجح ان ينظر الى جميع القيم التقليدية

للمجتمع الاستعماري، ولا سيما الاستيطان والخدمة العسكرية الطويلة الأمد وربما الهجرة أيضاً، بوصفها عوائق لا ضرورة لها بالنسبة الى افراد في مجتمع لم يعد يحيا تحت خطر الحرب».

ان عبارة غرشون الأخيرة بالذات يمكن ان توحي بأن مدرسة (التأريخ الجديد) معادية او مضادة للصهيونية. وهذا غير صحيح. والدليل على ذلك حوار جرى على صفحات صحيفة «هآرتس» واعترف فيه بني موريس بإنه «صهيوني» ويؤيد «اقامة الدولة اليهودية». وقد بدأ الحوار بهجوم عنيف شنه امنون روبنشتاين على المؤرخين الجدد و «علماء الاجتماع النقديين».

وقيمة هذا النقد انه صدر عن شخصية مهمة سياسياً وعلمياً وممن ينتمون الى ما يسمى بـ «اليسار الصهيوني» فهو من قادة حزب «ميرتس» ووزير سابق للتربية والتعليم والرياضة، ووزير للاتصالات، كما انه صحفي ومحام وأستاذ للاقتصاد والعلاقات الدولية في الجامعة العبرية. كما شغل عميد كلية الحقوق في جامعة تل ابيب.

وقد وصف روبنشتاين هؤلاء المؤرخين الجدد بأنهم «قاصرون أكاديمياً» وانهم يشطبون كل واقعة لا يروق للفلسطينيين ذكرها، ويتجاهلون «أعمال الذبح» الفلسطينية ضد السكان «اليهود، بالطبع» الآمنين عديمي الحماية في الخليل، في عام ١٩٢٩. كما ان هؤلاء المؤرخين - حسب رأي روبنشتاين - مناهضون للصهيونية، ويهاجمون «وجود وحق الوجود للوطن القومي للشعب اليهودي». وأضاف: «هكذا يتحول الهجوم ما بعد الصهيوني الى دعاية مناهضة للصهيونية، وهي تمثل وجهة نظر ايديولوجية وليست بحثاً اكاديميا، مهما كان نقدياً».

وفي رده على هذه الاتهامات، فضح بني موريس - وهو حاليا محاضر في قسم التاريخ بجامعة بن جوريون - مواقف روبنشتاين ومواقف الجامعات الاسرائيلية.

كتب بني موريس في «هاآرتس» في ١٦ يونيو الماضي ما يلي:

«يكتب روبنشتاين عن «الشجاعة» اللازمة اليوم لكتابة «التاريخ القديم» والحقيقة هي ان التاريخ القديم يتمتع اليوم أيضا بالسيطرة على العالم الأكاديمي في البلاد. والى جانب المحاضرين القلة الذين يكتبون التاريخ الجديد، هناك الكثيرون الذين يواصلون الكتابة القديمة العتيقة، وكأن الوثائق لم تفتح وكأنهم موجودون نفسياً في أواخر سنوات الخمسين. وصحيح أيضاً ان من أولئك الذين يكتبون التاريخ «الجديد» هناك الكثيرون ممن يخافون التماثل العلني مع الموجة الجديدة، خشية أن ينالوا منهم بحرمانهم من الترقية الأكاديمية ومنح البحث وما شابه».

ثم أضاف موريس في ختام مقاله:

«وبالاجمال، فان الجامعات في البلاد على الأقل في المجالات التي اختص بها، هي من المؤسسات المحافظة القديمة والدوجماتية في الدولة، وليس من قبيل الصدفة ان تكون أغلب الكتب الجديدة والمركزية التي اشتهرت في السنوات الأخيرة قد نشرها مؤرخون يعملون خارج الأكاديمية الاسرائيلية، ونشرت في دور نشر غير جامعية - اسرائيلية «عام عوفيد، دومينو، أكسفورد يونيفر ستي برس وما شابه».

ولأسفي، فانه على الرغم من ادعاء روبنشتاين بأن اسرائيل لا حاجة لأية شجاعة عامة لعمل ذلك أي لتحطيم الأساطير، فاني شخصياً قد اضطررت الى دفع ثمن غال من السنوات في خارج الأكاديمية «بما في ذلك في عهد ولاية روبنشتاين وزيرا للمعارف» بسبب كتابة تاريخية لم تكن تروق للمؤسسة، ولست الوحيد.

لقد ركز بني موريس على وصف أعماله التاريخية بأنها «صهيونية»، ولكن هدفها «اضاءة للماضي، والسعي الى

الحقيقة». ومع ذلك، وبالرغم من حرصه الشديد على نفي عدائه للصهيونية، الا انه مثل غرشون حرص بني موريس على ان يصف اسرائيل بأنها «دخلت في السنوات الراهنة في عهد (ما بعد الايديولوجيا) بمعنى (ما بعد الصهيونية)، اذا اخذت المصالح والقيم العملية الفردية تتغلب على المصالح والقيم الجمعية، كما يخيل اليّ ان الاحساس بالاكتظاظ الزائد في الدولة «والذي يجد تعبيره يومياً في طرق وارصفة المدن» أخذ يتموضع في وعي كثير من الاسرائيليين، الأمر الذي من شأنه في المستقبل أن يؤدي ويجب ان يؤدي الى الحد من الهجرة الوافدة لاعتبارات «عملية» وليست «ايديولوجية». وهذا سياق آخر ما بعد صهيوني».

وفي العدد التالي من «هاآرتس» أي عدد ١٧ يونيو الماضي، دخل حلبة الحوار فارس آخر من فرسان «المؤرخين الجدد» هو ايلان بابا الذي تحدث بوضوح عن «أعمال الاجرام الاسرائيلي في عام ١٩٤٨». فالطرد كان حقيقة معروفة للجميع، بمن في ذلك امنون روبنشتاين.

ولا اعتقد ان الحوار توقف عند هذا الحد. ولكن الذي اعتقده حقا وصدقا ان مثل هذا الحوار الصهيوني يستحق ان نتابعه، فهو ليس مجرد حوار اكاديمي او جامعي او تاريخي، انه حوار سياسي من الطراز الأول، فقد كانت الجامعة العبرية احدى المؤسسات في بناء الكيان الصهيوني، الذي يجب ان نهتم بمتابعة كل ما يدور في داخله. ولن ننتصر على الصهاينة إلا اذا كانت معرفتنا بهم في مستوى معرفتهم بناء الى جانب عوامل أخرى كثيرة.

الفصــل الســادس

مائة عام على مؤتمر بال - أغسطس ١٨٩٧ دراسات المؤرخ اميل توما وروجيه جارودي

■ علـي العائــدي

الفصل السادس

مائة عام على مؤتمر بال - أغسطس ١٨٩٧ دراسات المؤرخ اميل توما وروجيه جارودي

▫ علي العائدي

■ يعتبر الجهد الذي قدمه المؤرخ الفلسطيني الراحل د.أميل توما (١٩٨٤) على درجة كبيرة من الأهمية في أبحاثه ودراساته للصهيونية وتنفيذ أفكارها العنصرية، وما ترمي إليه من مشاريع سياسية واستعمارية، وقد جاء كتابه الشهير «جذور القضية الفلسطينية» إضافة هامة أغنت المكتبة العربية، كما أن دراسات د. أنيس صايغ مدير مركز الأبحاث في بيروت بذات الأهمية لما تحتويه من توثيق تاريخي ومتابعة ناشطة.

ومع مرور مائة عام على انعقاد مؤتمر بال الصهيوني، فإنه من الضروري المراجعة والتذكير بتلك الإضاءات الجديدة لما قدمه المؤرخ الراحل د. أميل توما من دراسة حول الصهيونية، بمقارنة لما قدمه حديثاً المفكر الفرنسي روجيه جارودي في كتابه المهم «الأساطير المؤسسة في السياسة الإسرائيلية»، ومن شأن هذه المقارنة استعراض منهجية البحث عند كل من أميل توما وجارودي، وما تبتغيه هذه الدراسة في التوصل الى رؤية استنتاجية لهذه الأفكار مع مقاربة من شأنها أن تقول إضافاتها واستخلاصاتها كرؤية مستقبلية حول الصهيونية ونحن على

أبواب دخول القرن الحادي والعشرين.

منذ أن نشأت الصهيونية كحركة ذات مشروع سياسي استعماري ونسيج العنكبوت يتسع ويكبر ويمتد ليشمل معظم دول العالم وتحديداً أوروبا - أمريكا وإسرائيل ككيان لها، وأيضا مراكز الرأسمال العالمي، ومع اتساع نسيج العنكبوت، اتسعت البروبوكاندا والتضليل المؤثر، ومن التأسيس إلى التسييس، ومن «مكان بين الأمم» إلى اغتيال الأمم والتاريخ، إلى وأد الحقيقة في مهدها حتى أضحت الصهيونية بتاريخها الدموي وبأفكارها العنصرية وراء كل مصائب القرن العشرين، وما سببته لليهود أنفسهم - الهولوكوست - إذ أنها تآمرت مع النازية ضدهم من أجل إنجاح مشروعها السياسي في إنشاء كيانها.

دخول التاريخ من باب الاسطورة:

وربما يتفق بعض القادة والمفكرين الصهاينة في تقدير ماهية الصهيونية، ويتفاوت نهجهم في تعقب آثار نشأتها دون أن يؤثر ذلك في استنتاجاتهم المعاصرة من حيث الجوهر، وفي دراسات أميل توما بإسلوبه التنقيبي البحثي في أصول وتاريخ الصهيونية يشير لقول أحد كبار الزعماء الصهاينة القدامى وهو ناحوم سوكولوف: «إنها حقيقة بسيطة يبدأ تاريخ إسرائيل بالصهيونية، ويبين هذا التاريخ في الأزمنة السحيقة، تحقيق الصهيونية، فالخروج من مصر كان مثلا بين الهجرة الكولونيالية (استعمار الأرض) والعودة من بابل كانت حدثاً صهيونيا عظيما؟!» (كتابه تاريخ الصهيونية).

إلا أن سوكولوف يريد أن يؤسس لمفهوم تاريخي للصهيونية، بربط أسطوري للأزمنة القديمة، وهذا التفكير يقود إلى زرع جذور فكرة في تربة قديمة، ويتبين فيما بعد أنها غير صالحة، على طريقة ركوب التاريخ، وبرأي المؤرخ أميل توما: «فمن التعدي على التاريخ أن يتم الحديث عن الصهيونية منذ فجر التاريخ، كالخروج من مصر أو اجبار اليهود على الشتات».

وهكذا تريد الصهيونية أن تخلق مبررات وجودها، فتغتال الحقيقة ولا تجد إلا الأسطورة مبرراً لوجودها وبحسب روجيه جارودي: «إن هذا أي الاسطورة شعار محرك قوى لا يستطيع رجل سياسي مثل هرتزل أن يتجاهله وهكذا يصرخ بعد أن ينقل الأسطورة القوية في صورة العودة والميعاد، إلى حقيقة تاريخية».
في حين أن هرتزل زعيم الحركة الصهيونية يعتبر في بال، أن فلسطين هي الوطن التاريخي بالنسبة لليهود ولا يمكن نسيانه: «إن هذا وحده يشكل صرخه انضواء لشعبنا». (هرتزل، الدولة اليهودية).

وعلى اعتبار أن الصهيونية أيديولوجيا سياسية معاصرة، فمنذ نشأتها يتبين طريقة نشاطها على مدار القرن، وكان لها رعاية عالمية عينية، إذ أنها أقامت بناءها الأيديولوجي على الدين اليهودي كعامل توظيف (الغاية تبرر الوسيلة)، وجعلته جوهر القومية التي أرادت خلقها، وهنا يشير أميل توما حول هذه المسألة بقوله: «ولا بد عند هذا الحد من معالجة أسطورة أخرى نسجتها الصهيونية إلى جنب أسطورة الشوق الخالد إلى صهيون الذي لم يكن شوقا غيبيا للهروب والخاص؟! والمقصود هنا أسطورة الشتات التي زعمت أن القوى الظالمة فرضته وحالت عبر التاريخ دون عودتهم إلى أرض الميعاد. يقول توما: «إن التاريخ ينسف هذه الأسطورة تماماً». لقد رفضت الصهيونية فكرة اندماج اليهود في المجتمعات وكانت تنزع إلى طرح نفسها ممثلة عن هدف إقامة الوطن القومي وعاشت الطوائف اليهودية في أوروبا القرون الوسطى في الغيتوات التي أقيمت في اسبانيا وصقلية باعتبارها رمزاً ماديا لتنظيمهم الذاتي وهنا، أليس من السخرية أن يقدم اليهود على صنع الغيتو بأنفسهم؟! إلا أنه مع تدشين الرأسمالية عصرها الاقتصادي الجديد، وتحقيق الثورات البرجوازية في أوروبا، حدثت نقلة نوعية في حياة اليهود آنذاك، إذ أزيلت حواجز الغيتو تدريجيا وفتحت الطرق أمام اليهودية

بالاندماج مع المجتمعات التي كانت تعيش وسطها.

لقد لاحظ بن هلبرن إعتماداً على تراث القرن التاسع عشر: «بأن الوعد بقدوم المسيح افترض أن لا يقوم اليهود بأي عمل لإعادة سيادتهم القومية، فعليهم أن يواصلوا رسالتهم بين الأمم على أساس أن الخلاص سيأتي من جراء تدخل إلهي». ويبدو أن العودة إلى الأزمنة، تأخذ شكل توفير فرص الحل، وما أقدم عليه مجلس السنهدرين لليهود كان حدثاً هاماً في حياة الطوائف اليهودية في أوروبا القرن التاسع عشر، لأنه وضع أسساً أيديولوجية لحل المسألة اليهودية، في ظروف قد فتحت الأبواب والفرص بالاندماج، لكنهم كانوا يرفضون ذلك على الدوام، وهنا يركز المؤرخ أميل توما في أبحاثه على هذه الفترة بالذات فيقول: «لم يكن من قبيل المصادفة أن تنشأ الصهيونية في أوروبا وأن يكون توقيت ظهور منظمتها في نهاية القرن التاسع عشر، وأن تصوغ أيديولوجيتها على الوجه الذي صاغته فيه، فالأوضاع الاقتصادية والسياسية هي التي خلقت التربة لظهور اللاسامية أو الصهيونية التي زعم أصحابها بانها الرد الوحيد على اللاسامية».

لكن سرعان ما تتكشف ماهية الصهيونية وأهدافها عند تبلورها وما طرحته في مؤتمر بال يؤكد، ذلك، ولا ريب في أن الكثير من المؤرخين قد حددوا وقتا لظهور اللاسامية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. ويؤكدون أن الساسة لجأوا إليها لخدمة أغراضهم، كما يؤكد ذلك ماكس ديمونت في مؤلفه «اليهودية والله والتاريخ» حيث كتب: «أن اللاسامية وهي أيديولوجيا معاصرة تختلف تمام الاختلاف عن معاداة اليهود في القرون الوسطى». وربما أصاب ديمونت في تحليله لهذه المسألة، وهذا ما أكدته الأحداث فيما بعد إلا أن نظرة مقارنة بما قاله روجيه جارودي عن الصهيونية، أو فصلها عن الدين اليهودي من شأنها أن توضح الأمور أكثر. «إن هذه عقيدة قومية لم تنشأ

عن الديانة اليهودية، بل نشأت عن الحركات القومية الأوروبية التي ظهرت في القرن التاسع عشر » ولم يكن هرتزل مؤسس الصهيونية السياسية يصدر في عمله هذا عن الدين إذ قال: «إني لا أنقاد هنا بدافع ديني » فالأمر الذي كان يهمه لم يكن الأرض المقدسة بل هو تحقيق الأهداف القومية في أوغندا أو الأرجنتين أو طرابلس الغرب أو قبرص بلا تمييز. وهنا ينكشف الهدف الذي تريد أن تصل إليه الصهيونية وهو هدف استعماري في إقامةالوطن القومي بدون دافع ديني كما عبر هرتزل. ونمت مع هذه الحركة بذور العنصرية. وهكذا وبحسب أميل توما فإن ظهور الأيديولوجيا العنصرية رافق الإمبريالية التي كانت تبرر احتلالها وسيطرتها على الأقطار المتخلفة في أسيا وأفريقيا، وهنا يقول توما: «تؤكد حقائق التطور أن الأيديولوجيا العنصرية أسبق من اللاسامية لتي تفرعت عنها، والصهيونية انطلاقا من أيديولوجيتها العنصرية تعتبر اليهود أمة منفصلة لا يمكن لأفرادها أن يندمجوا بباقي الشعوب ».

الصهيونية وميعادها والمولود معاق:

عمل القادة الصهاينة بنفس طويل على ولادة الصهيونية. بإعلان القابلة القانونية من أوروبا، فلايهم لدى رعاة الصهيونية ومؤيديها عما إذا كان في الأحشاء مولود، أغلب الظن أنه معاق، يحاول الراعون المعاصرون أن يجملوا من صورته المشوهة. لقد تبلورت الفكرة الصهيونية المعاصرة التي ظهرت مع نهاية القرن التاسع عشر في كتاب تيودور هرتزل «الدولة اليهودية » وأيضا هناك زعيم آخر يهودي روسي يدعى «أوديسا يونبسكر في كتابه «التحرر الذاتي» إلا أن دعوته في إقامة دولة يهودية لا في فلسطين بالضرورة إذ استبعدها واعياً عدم وجود إطار تنظيمي وهذه النقطة كان يجهلها هرتزل وأولئك الذين أقاموا المنظمة

الصهيونية التي نشأت بعد مؤتمر بال. ومن منطلق أصحاب هذه الأيديولوجية التي كان قد صاغها هرتزل والقادة الصهاينة عموماً، اعتبرت أن الشعوب غير اليهودية ضمنياً وصراحة هي شعوب لاسامية واعتبروا أن اليهود شعب واحد (جعلهم أعداؤهم هكذا دون موافقتهم كما يحدث مراراً في التاريخ) ويفند اميل توما هذه الأفكار بأنهم أي القادة الصهاينة قد تجاهلوا العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي خلقت اللاسامية ويؤكدون أن اللاسامية أبدية قائمة بين كل الشعوب قاطبة وهي لطابعها العدائي أنشأت الشعب اليهودي ووحدته بدون إرادته أو موافقته. وهذا يعني كما قال توما: «أن الصهيونية قبلت مقولة اللاسامية وأصبحت وجهها الآخر». وهذا الأمر يؤكد بأن القادة الصهاينة يصرون في دعواتهم عموما ضد فكرة الاندماج في المجتمعات الأوروبية، وغيرها، إلا أن معظم الباحثين يتفقون في دراساتهم على أن الصهيونية بمشروعها السياسي القومي والاستعماري، لم يكن امتدادا للايمان اليهودي بالمعنى الروحاني، وكما تبين أبان انعقاد مؤتمر بال، إذ أن هرتزل كان متوقعاً قبل ذلك أن ينعقد في ميونيخ ولم يحصل ذلك بسبب معارضة الطائفة اليهودية هناك. وعن تلقي ردود الفعل الدينية يورد روجيه جارودي مثالا في حادثة وقعت قبل مائة عام إثر انعقاد المؤتمر اليهودي في امريكا، حينها كان الحاخام «اسحق ماير» الشخصية الأكثر تمثيلا لأمريكا تلك الأيام قد صوت على اقتراحه وانقسم فيه المؤتمرون إلى قسمين كل منهما يعارض الآخر بشأن قراءتين مختلفتين للكتاب المقدس، وهنا يعلل روجيه جارودي السبب في ذلك بقوله: «هناك قراءة سياسية وقبلية للصهيونية والقراءة الروحية والعالمية للأنبياء، وفازت فيه هذه الأخيرة بأكثرية الأصوات وجاء نص القرار كما يلي: «إننا نعارض معارضة كلية كل مبادرة تهدف إلى إنشاء دولة يهودية. إن محاولات من هذا النوع تبرز تصورا خاطئا لمهمة إسرائيل التي

كان الأنبياء اليهود أول من أعلنها.. ونحن نؤكد أن هدف العبرية ليس سياسياً ولا وطنيا، بل هو روحي إنه يهدف إلى إقامة عهد (ميسياني) يتلاقى فيه الناس جميعا ويعترفون بأنهم ينتسبون إلى طائفة واحدة كبرى لبناء مملكة الله على الأرض». وهكذا كان رد فعل المنظمات اليهودية في اتحاد الحاخامات في ألمانيا وكذلك التجمع الإسرائيلي العالمي في فرنسا والتجمع اليهودي النمساوي أيضا.

وعند مناقشة تعيين الوطن، كان في بادىء الأمر ثمة استبعاد لفلسطين، فالداعية فليوبنسكر عند بحثه يعلل ذلك بأن ذكرياتهم المرتبطة بها (أي فلسطين) قد تكون عاملا معرقلا، وعلى الرغم من الدعوة الصهيونية في مؤتمرها الأول (بال) دعت إلى إقامة الوطن القومي بفلسطين، إلا أنها عادت في عام ١٩٠٢ ودافعت عن اقتراح الممثل البريطاني «تشيبرلين »إقامة الوطن القومي في أوغندا وبعد هذا التاريخ حسمت هذه القضية عبر وعد بلفور وباستثمار الديانة اليهودية من قبل القادة الصهاينة، وكما أن كتاب «دولة اليهود» يعتبر المخطط الأول في التعاليم التي انتقلت بدورها إلى ممارسة صهيونية وتتضح فيه السياسة العامة التي ستقوم عليها الدولة اليهودية. و«جمعية اليهود» بدورها هي التي ستختار فيما بعد الرقعة التي ستكون فلسطين وليس الأرجنتين كما كان مطروحاً أيضا.

وبعدها أخذ المؤتمر الصهيوني يعالج أدق التفاصيل في البناء بعد إنشاء الجمعية اليهودية وهي الهيئة التي ستشرف على المشروع الاستيطاني بينما الشركة اليهودية هي المنفذة اقتصاديا والممولة لقضايا الهجرة.

بذور العنصرية في الايديولوجيا الصهيونية:

أخذت الحركة الصهيونية على عاتقها طرح عقيدتها

السياسية عام ١٨٩٧، وبذلك تكون المرجعية في الحركة ما يقوله هرتزل، ويلخص المفكر روجيه جارودي تعريفه للصهيونية بقوله:

« إنها قضية سياسية قومية استعمارية تلك السمات الثلاث التي تعرفنا لماهية الصهيونية السياسية كما استطاع أن ينجحها في مؤتمر بال - اغسطس ١٨٩٧ تيودر هيرتزل مؤسسها العبقري المكيافيلي الذي كان يستطيع القول وبحق في آخر هذا المؤتمر: (إنني أسست الدولة اليهودية).. ».

هذا بالنسبة للثوب السياسي الذي تغطت به الحركة الصهيونية وماذا عن ثوب العنصرية في الايديولوجيا، فتلك يقترب من دراستها المؤرخ اميل توما في كتابه جذور القضية الفلسطينية، فيقول: « ارتأت الايديولوجيا الصهيونية أن الأمة اليهودية لا أمة عالمية فحسب، بل أمة من نوع فريد تتجاوز التقسيمات الطبقية وينتفي فيها الصراع الاجتماعي، ولهذا كانت دعوة هرتزل معادية للاشتراكية ».

ويتضح ظهور تيارين في الصهيونية، بادىء الأمر، وهذان التياران يتفقان في الاستراتيجيا، ويختلفان في التكتيك، إذ يرتئي التيار التقليدي أن تكون الدولة اليهودية في وطنها المقبل دولة برجوازية مثل سائر الدول الأوروبية. والآخر تيار الصهيونية الاشتراكية ».

والمتتبع لمسيرة الحركة الصهيونية خلال قرن يرصد مواقفها السياسية فمثلا:

١- وقوف الصهيونية ضد اندماج اليهود في المجتمعات.

٢- خلق تبريرات مسبقة لمسألة احتلال الأرض بالقوة.

٣- موقف الصهيونية المضاد للثورات الاشتراكية بل تحالفت مع الإمبريالية العالمية.

٤- وقفت الصهيونية ضد حركات التقدم الإنساني والتحرر بل دعمت قوى الردة في العالم. مثال ذلك علاقتها مع النظام

العنصري في بريتوريا، ضد شعب جنوب أفريقيا وعلاقتها مع شاه إيران، وأيضا وقوفها إلى جانب عصابات «الكونترا» في نيكاراغوا وضد الفلسطينيين،وحربها مع جماهير الانتفاضة، وحربها على مصر ١٩٥٦، أثناء العدوان الثلاثي وتأميم قناة السويس.

٥- حصل تعاون وثيق بين القادة الصهاينة مع النازية قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها، وتعاون الصهاينة مع هتلر زعيم النازية، وكان لديه أكثر من مائتي ضابط صهيوني في جيشه وينفذون أوامر، وهذا الجانب أكدته الكثير من الدراسات والأبحاث ومنها دراسة جارودي وذكر مثالا: «اسحق شامير».

لقد وصلت الصهيونية في تعاليمها إلى القول: «بأن اسرائيل هي الإشارة المميزة للتاريخ الإلهي في العالم، وإن إسرائيل هي محور العالم وهي عصبه ومركزه وقلبه..؟!».

ويفند جارودي هذه الهرطقات في دراسته فيقول: «ومن دواعي الأسى أن تذكرنا هذه الأقوال بالأسطورة الآرية، التي قامت عليها. القومية الألمانية الهتلرية». ومن جهة ثانية نجد بأن الجانب الديني يأخذ الطريق المعاكس لتعاليم الأنبياء، يقول جارودي: «إن قصر المهمات الإلهية على شعب واحد، تمنع حسن الجوار، إذ لا يمكن التحاور لا مع هتلر ولا مع بيجن لأن تفوقهما العرقي أو تحالفهما حصرا مع الله لايدع أي مجال لانتظار أي شيء يأتيهما من الآخر»؟ وهنا سرعان ما ظهرت حقيقة الجريمة التي اقترفتها الصهيونية ضد بعض اليهود الذين حاولوا أن يدافعوا عن يهودية نبوية ضد يهودية قبلية، بينما تتكشف أوراق الصهيونية في ممارساتها للكذب والتضليل والافتراء، وهذا ما أكده جارودي في دراسته وبقوله: «الشيء الذي يغذي النزعة المعادية للسامية، ليس هو سياسة العدوان، والتدجيل والدم في الصهيونية الإسرائيلية، بل هو الدعم اللاشرطي لهذه السياسة، التي لم تبق من التراث اليهودي إلا ما يبرر هذه

السياسة، بتأويل بعض النصوص تأويلا حرفيا يجعلها فوق كل قانون دولي». ولعل التعجيل في تحقيق أهداف الصهيونية في استيطانها بفلسطين جاء بالدرجة الأولى على يد هتلر إذ قام بدوره بدفع جماعات اليهود للمجيء إلى فلسطين.

لغة العنف الصهيونية الى جانب اللغة العبرية:

ان اول ما يلفت النظر هو الاسلوب الذي اتبعته الصهيونية في تحقيق مشروعها الاستيطاني بفلسطين وتجسد ذلك عبر لغة العنف والقوة والمجازر والدم وطرد السكان بالقوة، وكل هذا كان بدعم دولي امبريالي وخصوصا دعم بريطاني ثم امريكي. لقد حملت الصهيونية خطابها الكولونيالي الى جانب الدول الاستعمارية آنذاك - بريطانيا - فرنسا. وسبق عصابات الصهيونية - الهاغاناة - شتيرن - الآرغون - وجود مؤسسات تمهد الطريق. حيث عمل القادة الصهاينة على تحصيل مزايا سياسية خاصة من الدول الكبرى، اذ ان هرتزل قد حدد رأسمالا كبيرا لمؤسسات يهودية ترعى شؤون الهجرة والاستيطان، وكان مركزها لندن، وبلغت هذه الاموال بادئ الامر ٢٠٠ مليون دولار اوائل العشرينات وكانت تحت تصرف السلطة البريطانية، باعتبارها هي التي ستحقق الوعد المشؤوم «وعد بلفور». وبهذا الصدد يقول اميل توما: «لم يكن غريبا ان تتجه الحركة الصهيونية الى الامبراطورية البريطانية وكان واضحا ان تقوم بريطانيا بدور على غاية من الاهمية..». ذلك يقود الى الاستنتاج بان القادة الصهاينة اكدوا وجود تماثل بينهم وبين الممارسة الاستعمارية.

يورد اميل توما مثالا على لسان احد القادة الصهاينة ويدعى «سوكولوف» في اطار رده على المتشككين يقول سوكولوف: «وتسأل ماهي سياستكم؟ وآخرون يقولون يجب استبعاد

السياسة، فالصهيونية يجب ان تكون اما استعمارا واما حركة روحية، ولكن يجب ان نكون صهيونيين في استعمارنا وروحنا ودينِنا؟.».

وبين ٢١ ـ ٣١ آب عقد في بال المؤتمر الصهيوني الاول الذي اقام المنظمة الصهيونية العالمية وصاغ البرنامج الصهيوني على الوجه التالي: تسعى الصهيونية الى بناء وطن للشعب اليهودي في فلسطين يضمنه القانون الدولي العام، واستخدام الاساليب الآتية:

١ ـ تنمية استعمار فلسطين بالعمال الزراعيين والصناعيين.

٢ ـ تنظيم وتلاحم اليهودية كلها «الطوائف» بالمؤسسات المحلية والدولية.

٣ ـ تنمية وتقوية الوعي والمشاعر القومية اليهودية».

٤ ـ اتخاذ اجراءات تمهيدية للحصول على الموافقة الدولية.

والى جانب هذه البنود الاستعمارية المخطط لها في تحقيق الاهداف، فقد عملت الصهيونية في قتالها على جبهة اللغة والادب وتجسد ذلك بتعميم اللغة العبرية واعتمادها كلغة للدولة الصهيونية، ومعركة اللغة هذه تذكر بانشاء المعاهد «التخنيون» لتعليم اللغة العبرية. لقد اكدت الصهيونية عبر ممارساتها الارهابية القائمة على العنف حقيقة وجودها وتجسيد كيانها وهكذا في فترة قصيرة امتدت مابين ١٨٨١ و ١٩١٨، عملت الصهيونية كل ما بوسعها لدعوة اليهود للاستيطان في فلسطين ولزيادة الهجرة، خاصة ان الدعوة كانت مركزة على يهود اوروبا الشرقية الذين كانوا يفضلون الهجرة الى الولايات المتحدة الامريكية. اذ كان ثمة نهوض اقتصادي في العالم الجديد. واصبح عدد الوافدين الى امريكا في تلك الفترة ١٩١٨، مايقرب اربعة ملايين في حين كان عدد اليهود في فلسطين عشية الحرب العالمية ٨٠,٠٠٠ وهبط الى ٦٥ الفا. وكانت الصهيونية عبر اسلوب العنف والارهاب الذي جسدته في فلسطين لقيام كيانها

«اسرائيل» قد فرضت هذا الكيان بالقوة كأمر واقع في المقابل مارست القتل والتشريد والطرد للسكان الاصليين الفلسطينيين، وارتكبت الكثير من المجازر عبر عصاباتها الهاغاناة وشتيرن والارغون، لاسيما مجزرة «دير ياسين»، و قامت باحتلال الارض. حتى عام النكبة ١٩٤٨ يوم اعلان قيام دولة اسرائيل على يد بن غوريون اول زعيم لها، وبهذا يكون هرتزل عبر السنوات القليلة التي قضاها بعد المؤتمر الصهيوني الاول ١٨٩٧، الى يوم وفاته ٣ تمور ١٩٠٤ هو اول مؤسس للحركة الصهيونية ولكيانها الاستيطاني الاسرائيلي، من ناحية نظرية وعملية. وكان قد حصل على موافقة ودعم الدول الكبرى الاستعمارية الامبريالية.

وقامت منظمة «الهاغاناة» الارهابية بفلسطين للدفاع عن المستوطنات حيث قال بن غوريون في تبريره آنذاك «لم يكن من الممكن الاعتماد على الانتداب البريطاني للدفاع عن هذه المستوطنات التي انتشرت في البلاد».

لقد رصد المؤرخ اميل توما ممارسات الصهيونية وطريقة ترويج افكارها بين اليهود، وفند في كتابه الكثير من الادعاءات والافتراءات، ويشير توما الى ان الوعي الجماهيري آنذاك في فلسطين كان قد ترجم بالشعور بوجود الخطر الصهيوني، وقامت الثورات والهبات الجماهيرية، واتضح اكثر فاكثر ازدياد عدد اليهود القادمين الى فلسطين تحت حماية بريطانية ودولية.

واستطاعت الصهيونية في فترة ان تؤسس مقوماتها القائمة على الاساطير لخلق كيا نها واعتمدت اللغة العبرية التي كان اليهود يرددونها في صلواتهم دون ان يفهموها او يعرفوا معناها، والى جانب اعتماد اللغة العبرية كانت لغة العنف المعبرة بشكل اوضح عن فحوى المشروع الصهيوني، يقول «نورمان بنتويش» عندما القى خطاب الافتتاح عام ١٩٤٦ لدى عودته الى الدراسة في الجامعة العبرية بالقدس: «ان الصوت اليهودي

الجـديد يتكلم عن طريق افـواه البنادق.. وان هذا هو التـوراة الجديدة لأرض اسـرائيل.. ان العالم اقـتـيد الى الجنون والقـوة المادية، وليحمنا الله من جر اليهودية وشعب اسرائيل الى هذا الجنون؟!

اذن فالايديولوجية الصهيونية تقوم على الاصطفاء العرقي وتمتلك القوة النووية ومن شأنها ان تضطهد شعبا ضعيفا آخر، وتسلك طريق الابادة كما سلكته النازية بزعامة هتلر كما ان تاريخ الصهيونية الممتلىء بالجرائم ضد الشعب الفلسطيني والعرب لهو دليل على هذا السلوك الفاشي والعنصري. لقد قامت دراسات اميل توما وروجيه جارودي على كشف الحقائق وفضح جوهر الصهيونية العنصرية، ولم يكتف جارودي بتبيان الاساطير التي قامت عليها الصهيونية، باعتبار دعائمها واسسها فهو يبين باسلوب منهجي، ويصنفها كالتالي:

١ ـ الاساطير اللاهوتية «شعب الله المختار». النقاء العرقي.

٢ ـ اساطير القرن العشرين:

أ ـ اسطورة «مكافحة الصهيونية للفاشية» في عام ١٩٤١ ارتكب اسحق شامير جريمة لا تغتفر من الناحية الاخلاقية هي تجنيد التحالف مع هتلر، مع المانيا النازية، ضد بريطانيا وكان للمنظمة الصهيونية وجود شرعي بالمانيا حتى عام ١٩٣٨، اي بعد خمس سنوات من حكم هتلر.

ب ـ اسطورة عدالة نورمبرغ «هذه المحكمة تمثل استمرارا للجهود الحربية للأمم المتحدة الحليفة» كما قال روت جاكسون مدعي الولايات المتحدة.

ج ـ اسطورة الملايين الستة «المحرقة» اذ ان هذا الرقم مشكوك فيه، كما تبين الشهادات والوثائق ولكن اعتبرته الصهيونية رقما مقدسا وارست سياسة التحريم لمناقشة صحة الرقم ويتعرض صاحبها للملاحقة كما حصل مع

جارودي. وعدد ضحايا المحرقة قدر بعشرات الآلاف وانشئت المحرقة من اجل حرق الجثث المصابة بالتيفوس. يقول «توم سيغيف»: ان الابادة الجماعية على غرار الوعد الالهي في التوراة، عنصر تبرير ايديولوجي لخلق دولة اسرائيل». حتى ان البريطانيين والاوروبيين عموما ضاقوا ذرعا باصرار اليهودية على تجاهل عذابات الخمسين مليونا من ضحايا الهتلرية اي الشعوب الاوروبية، غير اليهود الذين ماتوا في الحرب والمطالبة بتقديم العون والتعويضات لطوائف اليهود فقط.

٣ ـ خرافة ارض بلا شعب لشعب بلا أرض: «تقول غولدا مائير في حزيران ١٩٦٩، ليس هناك اي شعب فلسطيني، وليس الامر كما لو اننا جئنا لنطردهم، والاستيلاء على بلادهم، انهم لا وجود لهم»، ونسجل هنا حادثة اغتيال وقعت عام ١٩٩٠ في موسكو على يد اجهزة الموساد الصهيوني وكان ضحيتها «يفسييف» رئيس لجنة مكافحة الصهيونية.

استخلاصات نقدية حول الصهيونية «الثابت والمتحول»:

يقترب اميل توما في استخلاصاته ودراسته للصهيونية من المنهجية النقدية في تتبع الآثار وكشف زيف الادعاءات وكذلك الامر بالنسبة لجارودي في بحثه ماهية الصهيونية واساطيرها المؤسسة. ذلك ان المؤرخ اميل توما قد وضع عمله «جذور القضية الفلسطينية» ورحل عام ١٩٨٤ وهو بحكم المنسي بينما جارودي قد شمل بدراسته المعاصرة شهادات تاريخية واورد امثلة جديدة. وهذا ناتج عن وفرة المصادر عند جارودي ومتابعة وملاحقة الجديد حول هذه القضايا. ان طريقة البحث عند جارودي رصدت الصهيونية منذ نشأتها الى يومنا هذا، وبأدق التفاصيل وبالحجج

والبراهين العلمية والموضوعية إلا أن أميل توما تناول من جانب آخر في دراساته جذور القضية الفلسطينية وتابع الشأن الفلسطيني ووعد بلفور وقرار تقسيم فلسطين، ونظام الانتداب والممارسة الصهيونية والكتاب الابيض، وثورة عز الدين القسام ١٩٣٧ والحركة القومية العربية، اي ان اميل توما انطلق في بحثه وتحليلاته في ظل واقع قائم تحت ظروف الاحتلال وفي ظل وجود مرحلة الحرب الباردة بين المعسكرين الاشتراكي السوفييتي والامريكي الرأسمالي، بينما قدم روجيه جارودي دراسته في مرحلة مختلفة تماما وربما نقيضة، مرحلة انتصار الصهيونية او المرحلة التي نعيشها، النظام العالمي الجديد، نظام القطب الواحد، والهيمنة الامريكية على قرارات الامم المتحدة. لقد صدرت دراسات جارودي باسلوبها الشمولي المختص يعري الاساطير والهرطقات الصهيونية في ظل الهيمنة الامريكية الداعمة لاسرائيل، واستطاعت امريكا ان تسجل مع نهاية القرن العشرين انتصارا للصهيونية وذلك حين قامت بالغاء قرار هيئة الأمم المتحدة الذي يعتبر الصهيونية حركة عنصرية يجب مكافحتها، وتكون امريكا قد اضافت للقرن العشرين مأساة جديدة يعاني منها الفلسطينيون والعرب وربما شعوب العالم في تبرئة الصهيونية من جرائمها التاريخية والمستقبلية، وعلى الغاء الصفة الرئيسية للصهيونية في عنصريتها، تكون قد انتقلت الى طور جديد آخر للهيمنة وما تشهده التطورات السياسية في الشرق الاوسط خير دليل على ذلك - مايسمى باتفاقيات السلام - اوسلو، والتطبيع الاقتصادي وغيرها. والسؤال هنا: كيف يرى قادة اسرائيل الحركة الصهيونية اليوم؟ وهل اختلف الامر ويختلف بعد مضي مائة عام على نشأتها؟

في حقيقة الامر تبقى الصهيونية الممثلة لمصالح اسرائيل في العالم والمرجعية لها في القرارات فاستراتيجيتها مازالت قائمة وتتطور وتحصد الانتصارات. ودليل تطورها مشروعها

التسليحي النووي «ديونا» والقمر التجسسي الصناعي «افق ١، ٢» وتطوير صناعة الطائرات والدبابات الحربية اي تطور انتاجها وتصنيعها في التسلح وصادراتها. اذ تمتلك اسرائيل اليوم مائتي رأس نووي. وازدادت سياسة الاستيطان ومازالت قائمة رغم مايشاع عن عملية السلام والتفاوض حول الارض. اضف الى التأثير على قرارات الدول الكبرى مثل وجود اللوبي الصهيوني في امريكا وانحيازها للسياسة الاسرائيلية. وهنا ربما اختلفت النظرة عما قيل بالنسبة لأوروبا التي اخذت بسياسة مستقبلية مطلوب ان تأخذ دورها في المنطقة بعيدا عن الهيمنة الامريكية والصهيونية، ودول السوق الاوروبية تربط قراراتها السياسية بفتح اسواقها الاقتصادية واستثمار قراراتها في منطقة الشرق الاوسط، وهذه محاولة لكبح الاستفراد الامريكي بالمنطقة. صحيح ان الاسلوب الصهيوني يأخذ اشكالا متعددة ومتطورة إلا أن الهدف الاستراتيجي لم يتغير فهو مازال قائما ضمن برنامج «الثابت والمتحول» في الاستراتيجية الصهيونية، فمن الاستيطان الى الحروب والهيمنة العسكرية والاقتصادية.. الى الدخول بالعصر الذهبي وتتويج انتصاراتها. وربما هذه المرة لاتريد ان تدخل من بوابات الجبهات والحروب، الا اذا اهتزت مصالحها، وهنا ربما دخلت الصهيونية من بوابات مختلفة تماما عن سابقاتها تغزو المنطقة العربية والتأثير عليها من بوابة الاقتصاد وما يسمى بالسلام غير المتوازن. الذي يفرض فيه القوي شروطه على الضعيف. ونظرة الى المستقبل فان الصهيونية هي على الدوام طورت من خطابها ووفرت امكانات وجودها وهيمنتها على الشعوب الضعيفة.

الخطاب الصهيوني . الحاضر والمستقبل:

ماتم استعراضه من الجانب العملي اما على الصعيد النظري

فصورة الصهيونية يتضح مشروعها في الحاضر والمستقبل كالتالي:

١ ـ لم تتخل اسرائيل الصهيونية عن عنصريتها ففي عام ١٩٩٦، «رفض بنك الدم الاسرائيلي، دم اليهود الفلاشا، بينما التيار الديني العنصري يتنامى اكثر من ذي قبل «باروخ غولدشتاين» مجزرة الخليل، وحادثة اغتيال رابين من قبل الاسرائيلي المتطرف ايغال عمير، إذ اعتبر ما اقترفه بمثابة تنفيذ مهمة بأمر إلهي.. هكذا يريد الرب؟!

٢ ـ صعود التيار المتشدد «الليكود» الذي يمثله نتانياهو الامر الذي يدعو الى التساؤل: لماذا عند طرح القضايا الجوهرية في الصراع ينسحب حزب العمل ويخلي المكان لـ «الليكود»، علما انه لافرق بين العمل والليكود في الاستراتيجيات فكلاهما يتبعان تنفيذ الاهداف الصهيونية الاستيطان ومصادرة الاراضي الفلسطينية وتهويد القدس؟ تلك هي جوهر السياسة الصهيونية في المستقبل اي فرض الهيمنة على القدس واعتبارها عاصمة للدولة العبرية. ووفق ماجاء على لسان قادة اسرائيل من تصريحات مرارا.

٣ ـ تصعيد الخطاب الصهيوني الذي تأسس على لغة القوة والتسلح وهنا رفضت اسرائيل التوقيع على اتفاقية حظر الاسلحة النووية وحجتها انها مهددة من الدول العربية التي لاتمتلك اسلحة الدمار الشامل او اسلحة تقليدية ونووية.

٤ ـ لم تتغير النظرة الصهيونية في الجوهر مسألة التفوق والعرقية. ولا تتخلى عن نظرية الهيمنة باساليب جديدة عسكريا وسياسيا واقتصاديا.

٥ ـ عدم الاعتراف بالآخر الا مستسلما مهزوما ضعيفا وهذا ماحصل ويحصل مع الفلسطينيين وسلطة الحكم الذاتي، وهنا ينطبق مثال الضحية والجلاد ففي عصر القوة الصهيونية مطلوب من الضحية ان تعتذر لجلادها وهذا الاسلوب يؤدي في

النتيجة الى الغاء وجود الضحية كليا وافتراسها اي عدم الاقرار بحقوق الآخر.

٦ - تفصيل قرارات الأمم المتحدة بما يتناسب مع سياستها وتفسير القرارات السابقة الصادرة ضدها والعمل على الغائها، ومثال على ذلك الغاء قرار وصف الصهيونية بالعنصرية. وهي تعمل على تجاوز هذه المؤسسة الدولية بالتنسيق مع السياسة الامريكية حتى تتم الهيمنة على مقدرات الشعوب ودول العالم الثالث.

ان المشروع الصهيوني لا حدود له وهو لايكتفي بفلسطين كوطن لليهود او برقعة ارض، فالمشروع الصهيوني وهذا باعتراف القادة الصهاينة والمؤسسين منذ مؤتمر بال هو مشروع هيمنة على العالم برمته ومن هذه النقطة بالذات يجب ان يتسع فهمنا للمشروع الصهيوني سواء في الماضي او في الحاضر والمستقبل.. الدخول من ابواب اخرى - اقتصاد - ثقافة - تطبيع - والسؤال هنا هل لدى الطرف العربي من استراتيجية مواجهة للاهداف الصهيونية وتطويقها ام ان هناك انفتاحا عليها تحت حجج الاقتصاد والتطور والخبرات العلمية والسلام.. ومن خلال هذا الانفتاح تدخل الصهيونية في عصرها الذهبي من بوابة القرن الواحد والعشرين وهي ترتدي بدلة من حديد وترقص في حلبات عالمية وتضع على رأسها طربوشا نوويا؟!

الفصل السابع

١٠٠ سنة من الحركة الصهيونية
انجازات ضخمة
وانتصارات مستمرة . . لماذا ؟

■ مصطفى كركوتي

الفصل السابع

١٠٠ سنة من الحركة الصهيونية انجازات ضخمة وانتصارات مستمرة.. لماذا؟

مصطفى كركوتي

احتفل الصهاينة في العالم في شهر اغسطس ١٩٩٧ بمرور مائة عام على تأسيس حركتهم في مدينة بازل في سويسرا. وقد تم تأسيس هذه الحركة في نهاية اعمال المؤتمر الصهيوني الأول الذي انعقد في بازل بين ٢٩ و٣١ اغسطس عام ١٨٩٧. ولا شك ان هناك الكثير من الانجازات الضخمة التي تم تحقيقها منذ ذلك الحين، علما بأن ذلك كان على حساب وحقوق شعوب اخرى. إلا ان الاجحاف الذي يلحق بالفلسطينيين والعرب إثر كل انجاز وانتصار، لا يقلل من الاهمية التاريخية والفعلية للانجازات والانتصارات التي حققتها الحركة الصهيونية على مدى قرن كامل.

وقد يكون من الملائم في هذه المناسبة، العودة قليلاً الى ذاكرة التاريخ والمؤرخين لتسجيل بعض وقائع واحداث الاسابيع والاشهر عشية انطلاقة الحركة الصهيونية كقوة سياسية فاعلة، نمت وتطورت لتصبح في السنوات اللاحقة احدى اهم - إن لم تكن أهم - حركة سياسية تنهض في العالم منذ اواخر القرن التاسع عشر.

فبعد مرور سنوات قليلة على انعقاد مؤتمر بازل الأول اصبحت الحركة الصهيونية بمثابة الحركة «الوطنية» ليهود

اوروبا اولاً، وليهود العالم لاحقا.. ويجمع المؤرخون والمفكرون اليهود وغير اليهود، بمن في ذلك الصهاينة منهم، انه لا توجد حركة وطنية في التاريخ استطاعت ان تحقق انجازات بهذه الضخامة، خلال وقت قصير، وامام معوقات هائلة، مثلما فعلت الحركة الصهيونية.

فعند الإعلان عن اهداف واستراتيجية الحركة الصهيونية في مؤتمر بازل الأول، لم يعتقد احد - بمن في ذلك اليهود انفسهم - انه سيكون بمقدور هذه الحركة تحقيق هذا الحجم من الانجازات خلال مائة عام فقط. بل ان هناك عددا كبيرا من كبار قادة الحركة الصهيونية نفسها الذين هزأوا واستخفوا بهذه الاستراتيجية، واعربوا عن اعتقادهم باستحالة تنفيذها على الاطلاق، واعتبروا كلام مؤسس الحركة وصاحب الدعوة الى عقد مؤتمر بازل تيودور هرتزل ضربا من ضروب الجنون.

المهمة المستحيلة

ولعل اكثر الاهداف غرابة من بين الاهداف التي اعلن عنها في ذلك الحين، كانت الدعوة للعمل على اقامة «الدولة القومية اليهودية» حيث لا يعيش داخل حدودها غير اليهود بغض النظر عن الجنسية التي ينتسبون اليها. وقد رأى الكثير من اعضاء مؤتمر بازل في عام ١٨٩٧ في هذه الدعوة «مهمة مستحيلة»، لأن الدولة اليهودية التي يدعو هرتزل الى تأسيسها ستقوم فوق ارض لا يوجد فيها يهود في الاصل، أو حتى لو وجدوا فإنهم سيشكلون اقلية ضئيلة.

ويحاول العديد من المؤرخين الصهاينة منذ عام ١٨٩٧ البرهان على وجود يهود بشكل دائم فوق ارض فلسطين لتوفير التبرير التاريخي المطلوب لتنفيذ دعوة المؤتمر الصهيوني الأول في السنوات اللاحقة. إلا ان جميع هذه المحاولات باءت بالفشل

من الناحية العلمية والتاريخية، لأن الثابت في كتب التاريخ والذي يحظى باجماع المؤرخين والوثائق الرسمية ان اليهود اندثروا بالكامل تقريبا منذ الحملات الصليبية، ولم يتبق منهم إلا اعداد قليلة.

ويدعي البعض من المؤرخين الصهاينة ان عدد اليهود في فلسطين تنامي باطراد في عصر الحكم العثماني. وقد يكون هذا الامر صحيحا من الناحية الرقمية، الا ان المثبت ايضا في الوثائق ان هذه الزيادة لم تجعل من اليهود اغلبية على الاطلاق، بل كانوا يشكلون اقلية صغيرة. وفي اثناء اعلان هرتزل عن دعوته الى اقامة «الوطن القومي اليهودي» قبل قرن مضى على سبيل المثال، فإن عدد اليهود في فلسطين تراوح بين ٥٠ و٧٥ ألفا وسط حوالي مليون عربي. ويضاف الى ذلك ان اغلبية اليهود في فلسطين وخارجها لم يظهروا اي اهتمام بدعوة هرتزل، بل ان بعضهم عارضها معارضة شديدة وقاطع مؤتمر بازل نفسه.

اما المعوق الثاني الذي واجه الحركة الصهيونية في سنواتها الأولى ايضا فيتعلق الى حد كبير بفكر وفلسفة الحركة نفسها. فقد حاولت الحركة الربط ما بين «الطموحات الوطنية» - اذا صح التعبير - وما بين المشاعر الدينية. فرجال الدين اليهود (الحاخامات) وقفوا ضد الحركة الصهيونية بدلا من التحالف معها بحجة انها تمثل، وتخضع لقيادة، العلمانيين، كما ان مؤسسي الحركة الصهيونية انفسهم كانوا غير متدينين.

وينطبق هذا الكلام اكثر من اي شخص آخر على هرتزل نفسه الذي عرف طوال فترة حياته القصيرة (عاش لمدة ٤٤ عاما فقط) ابتعاده عن الدين وحياة التدين والفكر الديني اليهودي. فهو لم يعرف عنه تردده على المعابد اليهودية في المناسبات الدينية، أو اعتقاده بالضرورة بمحتويات التوراة، بل ينسب الى احد الحاخامات قوله انه شاهد هرتزل عندما قام بزيارته في منزله في شهر ديسمبر وهو يساعد اولاده في تزيين شجرة عيد

الميلاد. وينحدر هرتزل من عائلة نمساوية ميسورة وكان يتمتع بثروة كبيرة وحقق نجاحا كبيرا كروائي وصحفي، وكان يعتبر العديد من كتاب وشعراء فيينا البارزين اصدقاء له، مثل آرثر شنتزلر وهيوغو فون هوفمانستال، وستيفن زفينغ، وريتشارد بيرهوفمان. وكان جميع هؤلاء يهودا، ولكن لم يكن احد منهم اي احترام لرجال الدين اليهود، واعتبروا انفسهم علمانيين اكثر قربا من غيرهم من العلمانيين الأوروبيين - وخاصة الالمان منهم.

بدايات التحول

والذي يزيد من الحيرة في فهم واستيعاب الانجازات الضخمة لهذه الحركة ايضا، هو ان زعيمها ومؤسسها لم يكن يعرف عنه ولعه باليهود او حبه لهم اصلا. ويقول الذين قرأوا مسرحية هرتزل التي كتبها عام ١٨٩٣ تحت عنوان «الفيتو الجديد»، انه كان ينظر لليهود نظرة ازدراء. وقد وجه له صديقه الكاتب شنتزلر انتقادا لازدرائه اليهود، الا ان هرتزل اوضح ان مسرحيته لا تهدف الى الدفاع عن اليهود او انتقادهم، ولكنه - اي هرتزل - كتب المسرحية بهدف ابراز ووصف طبيعة «المأزق الذي يعيشون فيه».

وقد وصل الأمر بهرتزل في ذلك الوقت توجيهه الدعوة لليهود في عام ١٨٩٣ الى «النصرنة الجماعية»، اي التحول الى الدين المسيحي كحل لمشكلتهم والخروج من المأزق الاجتماعي والسياسي الذي كانوا يتعرضون له في ذلك الحين داخل المجتمعات التي يعيشون فيها. إلا ان بدايات التحول في فكر هرتزل حصلت بعد عام واحد، وبالتحديد في عام ١٨٩٤، وفي إثر تفجر ما يعرف باسم «قضية دريفوس» في باريس في ذلك العام. والقضية تتعلق بالنقيب اليهودي الفريد دريفوس الذي

كان عضوا في هيئة الاركان الفرنسية. والذي اتهم بالتورط بخطة لتسريب معلومات سرية حول هيكلية القوات الفرنسية الى السفارة الالمانية في باريس. وفي ١٨٩٤ وجدت محكمة عسكرية دريفوس مذنبا، ولكن تبين بعد عامين ان ضابطا آخر هو المتورط بالخطة. الا ان محكمة اخرى وجدت دريفوس مذنبا ايضا في عام ١٨٩٩، ولم ترفع التهمة عن دريفوس إلا في عام ١٩٠٤. لقد اقنعت تلك القضية هرتزل بأنه لا يوجد حل لما اصبح يعرف باسم «المسألة اليهودية» إلا من خلال قيام وطن قومي لليهود، وليس من خلال الانصهار في مجتمعات الدول التي يعيشون فيها.

وكان هرتزل في الرابعة والثلاثين من العمر عندما تبنى هذا الموقف وسخر ما تبقى من حياته من اجل خدمة هدف اقامة «الدولة اليهودية».. وقد كتب سلسلة من المقالات في عام ١٨٩٦ شرح فيها فكرته ونشرت لأول مرة في صفحات جريدة «الجويش كرونيكل» البريطانية. وقال هرتزل في إحدى هذه المقالات ما يلي: «نحن شعب، شعب واحد.. لقد جربنا بصدق الاندماج في المجتمعات التي نعيش في وسطها مع الاحتفاظ بمعتقدنا فقط. الا انه لا يسمح لنا بذلك.. لقد حاولنا زيادة بهاء اجدادنا من خلال انجازاتنا في مجالات العلوم والفنون. وزيادة ثروتهم من خلال دورنا في التجارة.. الا اننا ندان كغرباء.

لم يستقبل كل اليهود كلام هرتزل بالترحيب. بل ان بعضا من اصدقائه هاجموا هذا الموقف واعتبر بعض آخر هرتزل بانه يؤذي اليهود اكثر مما يخدمهم، لأنه من جراء هذا الموقف يضاعف الشعور المعادي للسامية في اوروبا. إلا ان ثمة يهودا آخرين رحبوا بموقف هرتزل، خاصة منظمات وجمعيات الشباب اليهودية، بالاضافة الى صهاينة روسيا القدامى الذي كانوا بدأوا بناء المستعمرات اليهودية في فلسطين قبل وقت من ظهور هرتزل على المسرح السياسي. واعتبر هؤلاء فكرة هرتزل بأنها

تعبير شفوي عن حلمهم.

ويقول هرتزل نفسه عن التحول الذي حققه في موقفه بين عامي ١٨٩٢ و١٨٩٦ بأنه بمثابة «عملية اقصاء» تدرج خلالها من موقف الى آخر، الى ان وصل الى قناعته الاخيرة التي سبقه الى تنفيذها على الارض الصهاينة الروس. ورأى هرتزل ان الخطوة التالية يجب ان تركز على عقد منتدى دولي لليهود لمناقشة الفكرة المقترحة قبل الاعلان عن استراتيجية محددة الاهداف وتحديد سبيل التحرك المقبل. وهكذا تطورت المداولات الى توجيه الدعوة الى عقد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل عام ١٨٩٧.

اسباب النجاح

الا ان هذه الدعوة سببت قلقا كبيرا في اوساط المراكز اليهودية الهامة في اوروبا التي حاولت الرد على الاتهامات التي كانت توجه الى اليهود بانهم ينوون عقد مؤتمر دولي لهم «لوضع خطة تآمرية ضد العالم». وكنتيجة لذلك عزف هرتزل عن نشر كتابه (الدولة اليهودية) في ذلك الحين، وفعل ذلك لاحقا في عام ١٩٠٢، كما لقي مؤتمر بازل استنكار ومقاطعة هذه الاوساط، وكتبت صحيفة «الجويش كرونيكل» قبل مائة عام تقول: «ان المؤتمر يشكل اهانة لوطنية اليهود المنتسبين الى جنسيات مختلفة. ويساعد المعادين للسامية في تثبيت اقوالهم بأن اليهود غير وطنيين وليسوا غيورين على الدول التي يعيشون فيها».

وقد عارض دعوة هرتزل لعقد المؤتمر الصهيوني مجلس الحاخامات الأعلى في المانيا الذي اعتبر الدعوة لاقامة وطن يهودي في فلسطين «تتعارض مع نصوص الكتاب المقدس». ونفر اصدقاء هرتزل منه وخاصة اولئك الذين كان يتمنى مؤسس الحركة الصهيونية وجودهم الى جانبه على المنصة

الرئيسية في مؤتمر بازل. ومن هؤلاء كبير حاخامي فرنسا زادوك كاهن الذي اعتذر عن الحضور، وكذلك كبير حاخامي فيينا موريتز غودمان الذي لم يكتف بالاعتذار فحسب، بل شن هجوما شديدا ضد خطة هرتزل.

ومن بين الذين عارضوا فكرة عقد المؤتمر احد اقرب اصدقاء هرتزل من البريطانيين وهو العقيد غولدسميد، وكذلك المصرفي البارز في ذلك الحين صاموئيل مونتيغيو. والمعروف ان هرتزل كان يسعى لعقد المؤتمر في ميونيخ في المانيا، الا ان معارضة كبار قادة الجالية اليهودية الالمانية للفكرة حالت دون ذلك، مما ادى الى اختيار بازل كمكان له.

ويصف حاييم وايزمان الذي اصبح فيما بعد اول رئيس للدولة اليهودية وثاني رئيس للمؤتمر القومي اليهودي بعد وفاة هرتزل، مؤسس الحركة الصهيونية بكلمات فيها الكثير من المثالية وعدم التأكد من جدوى الدعوة الى اقامة الدولة اليهودية». ويقول وايزمان الشاب عندما شارك في اعمال مؤتمر بازل الأول ان هرتزل بدا لنا كنبي ودبلوماسي في آن معا. فتصريحات هرتزل السياسية في المؤتمر الأول، كان لها اثر غريب في نفوسنا على الرغم من غموضها. وقد بدت في بعض الاحيان وكأننا نحلم كرومانسيين، وان رؤانا كانت صغيرة. لقد كان يتحدث هرتزل عن اعتراف دولي بفلسطين ما، وبحركة هجرة واسعة النطاق. ومع مرور الزمن، تبخرت كل الافكار وبقيت العبارات فقط، وخاصة بعد فشل لقاءاته مع السلطان (العثماني) والقيصر (الالماني) ووزير الخارجية البريطاني. ومعروف ان هرتزل كان قد عرض على السلطان شراء الاراضي الفلسطينية وعندما واجهت خطته هذا النوع من المعوقات بدأ هرتزل يتحدث عن «وطن بديل» لليهود في اوغندا.

ولكن على الرغم من كل ذلك، فإن الحركة الصهيونية واصلت تطورها وتقدمها رغم كل الصعوبات. ولا شك ان هناك

اسباباً حالت دون انهيار هذه الحركة، وهي عوامل لم يحسب هرتزل لها اي حساب اثناء وضعه لخطط عقد المؤتمر الصهيوني الأول ولا بعده. ومن هذه العوامل نشوب الحرب العالمية الأولى وانهيار الامبراطورية العثمانية والاحتلال البريطاني لفلسطين، وتبني الادارة الامريكية لسياسة السماح بالهجرة الى الولايات المتحدة عام ١٩٢٤، وصعود ادولف هتلر الى السلطة في المانيا.

إلا ان هذا لا يقلل من شأن المؤتمر القومي اليهودي الأول الذي عقد في بازل عام ١٨٩٧، فلولا ذلك المؤتمر لما كانت هناك دولة يهودية الآن في فلسطين. فمؤتمر بازل وضع صيغة وآلية تنفيذ خطة قيام هذه الدولة التي توقع ان تنشأ خلال خمسين عاماً. فبعد ٢٠ عاما من انعقاد مؤتمر بازل، وبعد مرور ١٣ سنة على وفاة هرتزل، اعلنت الحكومة البريطانية على لسان وزير خارجيتها في ذلك الحين آرثر بلفور انها «تنظر بعطف نحو اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين».

ولا شك ان هذا الاعلان ما كان يمكن له ان يتم لو لم تسبقه حركة واسعة من الاتصالات العالمية والعلاقات العامة مع اصحاب الرأي والشأن بين الافراد والمؤسسات في اوروبا. وفي الوقت نفسه لو لم ينعقد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل ويضع اسس قيام «الدولة اليهودية»، لما كان العالم شهد قيام هذه الدولة في فلسطين. لقد ساهم هرتزل، بشكل أو بآخر، في صياغة هذه الأسس من دون ان يأتي على ذكر الفلسطينيين كشعب موجود فوق ارضها منذ آلاف السنين. ربما هرتزل الذي توفي في عام ١٩٠٤ وحفنة قليلة من زملائه فقط هم الذين حلموا بهذا الانجاز الكبير.

التفاصيل اللاحقة للحرب العالمية الأولى باتت معروفة للجميع، وخاصة وضع فلسطين تحت سلطة الانتداب البريطاني بدءاً من عام ١٩٢٢. وفي العقود اللاحقة شهدت هجرة اليهود الى فلسطين وتيرة لا مثيل لها في السابق. وقد بلغ عدد اليهود في

فلسطين في عام ١٩٤٧ عندما اعادت بريطانيا المشكلة الفلسطينية الى هيئة الامم المتحدة، نسبة ٣٠٪ من اجمالي السكان. لقد حولت افواج المهاجرين اليهود المتعاظمة خلال تلك الفترة الفلسطينيين الى غرباء في وطنهم، او هكذا بدوا في نظر العالم عشية الاعتراف الدولي بالدولة اليهودية. والمفارقة الكبرى تتمثل بنجاح آخر تحققه الحركة الصهيونية بدعم غربي واسع في ان تحول الفلسطيني في عيون العالم المعاصر ليس الى لاجيء مشرد داخل اراضيه وخارجها، بل الى عدو اجنبي خطير يهدد أمن ومستقبل الاسرائيلي الوديع الذي يعيش في وطن كان يدعى فلسطين قبل خمسين عاما فقط!!.

الفصـــل الثامـن

مئة عام على المؤتمر الصهيوني الأول..
أزمة الفكرة ومأزق الدولة!

■ صلاح حزيـن

الفصل الثامن

مئة عام على المؤتمر الصهيوني الأول.. أزمة الفكرة ومأزق الدولة!

صلاح حزين

بحلول عام ١٩٩٧، يكون قد مضى قرن بأكمله على المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في مدينة بازل السويسرية، وان كانت ذكرى مثل هذه تثير بعض الأسى لدينا، لكون هذه الحركة التي بدأت مرتبكة قد حققت ما لم يكن يحلم به اكثر مؤسسيها جموحاً في الخيال. فانها تحتاج في الواقع الى وقفة تقييمية فيها من الموضوعية أكثر مما فيها من جلد الذات، وفيها من النزوع الى معرفة الحقيقة اكثر مما فيها من اصطناع أوهام نبددها بسهولة او نستسلم لها بسهولة اكبر.

بعد قرن من انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول، تحولت الفكرة الصهيونية التي كانت حتى ذلك الوقت تتناثر في الكتب، وفي الأذهان الحالمة، وفي عقول بعض المفكرين اليهود، الى فكرة قيد التنفيذ، فكرة لها من يروج لها، ويطورها، ولها من يعمل على تحويلها الى واقع قائم على أرض حقيقية.. وهي أرض فلسطين، ولنتذكر هنا ان المؤتمر الصهيوني الأول، لم يكن قد حسم مسألة الأرض التي سيقيم عليها اليهود دولتهم، فقد كانت أمامه بدائل عدة تمتد من قبرص الى الأرجنتين، ومن فلسطين الى كينيا، حيث الأرض الموعودة لاقامة دولة يهودية في أوغندا، ففي ذلك الوقت كانت كينيا جزءاً من أوغندا وباسم

اوغندا طرح المشروع الصهيوني المعروف.

وان كانت هذه الحقيقة معروفة الى حد ما، فان ما هو ليس بالمعروف ان لغة الدولة اليهودية التي التقى زعماء الحركة الصهيونية للعمل من اجل اقامتها لم تكن محسومة بعد، فقد كانت أوساط يهودية أوروبية تدعو الى ان تكون لغة الييديش، وهي لغة كان يستخدمها يهود شرقي ووسط أوروبا، هي اللغة الرسمية للدولة الموعودة، ففي ذلك الوقت كانت لغة الييديش هي الأكثر انتشاراً بين يهود أوروبا - ولنتذكر ان الحركة الصهيونية هي حركة أوروبية في الدرجة الأولى - اما اللغة العبرية فكانت ما تزال لغة صلوات وطقوس ولغة حسابات خاصة بالطوائف اليهودية.

لكن أهم ما تمخض عنه المؤتمر الصهيوني الأول، هو ايجاد آلية لتحقيق الأهداف السياسية للحركة الصهيونية. ولا شك ان بقاء المؤتمر الصهيوني الأول ماثلاً في الأذهان يعود الى ان الحركة الصهيونية، التي اعلن انعقاد المؤتمر وصولها مرحلة النضج، حققت خلال القرن الماضي اهدافاً كانت تبدو لحظة انعقاد المؤتمر أهدافاً بعيدة المنال، فقد اقامت الحركة الصهيونية دولتها الخاصة، وتحقق بذلك الهدف الأهم للحركة «بعودة اليهود الى أرضهم الموعودة».

وفوق ذلك تحولت هذه الدولة الى أقوى دولة في المنطقة وتمكنت ليس فقط من «منع العرب من ازالتها، بل ومن هزيمتهم المرة تلو المرة، واحتلال أجزاء من دول الجوار، في الوقت الذي صهرت فيه على جزء من أرض فلسطين أقواما قدموا من بلدان متعددة، واثنيات مختلفة، وثقافات متباينة وبنت مجتمعا مؤسسيا يتمتع بقسط كبير من الديمقراطية يفوق ما هو موجود في دول المنطقة كافة.

لكن السؤال الذي يطرح هنا هو هل يعني هذا كله نجاح المشروع الصهيوني؟ وتحقيق الفكرة الصهيونية؟ وان الدولة

الاسرائيلية ذات الايديولوجية الصهيونية باتت على درجة من الاستقرار تضمن بقاءها الى الأبد، كما يكرر قادة اسرائيل ليل نهار، وهل امتلك المجتمع الاسرائيلي هويته النهائية كمجتمع يهودي الديانة، عبري اللغة، متعدد الثقافات؟

لقد كان اعلان قيام الدولة اليهودية التي عمل من أجل اقامتها رواد الحركة الصهيونية ذروة نجاح تلك الحركة في تحقيق اهدافها، وكان عليها بعد ذلك ان تحمي نفسها وتحتفظ بهذا الانجاز المهم، وهو ما فعلته الدولة الصهيونية طوال ١٩ عاماً توجت بهزيمة ثلاث دول عربية واحتلال أجزاء من أراضيها، ناهيك عن احتلال ما كان تبقى من أرض فلسطينية، وبذلك حققت الحركة الصهيونية ذروة أخرى من ذرا نجاحها، وكان عليها، كما حدث سابقاً، اي في عام ١٩٦٧، ان تحتفظ بهذا النجاح تمهيداً للانتقال الى ذروة جديدة تقيم معها دولة اسرائيل الكبرى.

ان هذا هو مطلب التيار الأكثر تطرفاً في الحركة الصهيونية، تيار «التحريضيين» الذي أسسه جابوتنسكي حين انشق عن التيار العمالي في عام ١٩٢٥، ثم عن الحركة الصهيونية كلها في عام ١٩٣٥، وتأسيسه منذ ذلك العام المنظمة الصهيونية الجديدة، والتي عادت الى الحظيرة الصهيونية مرة أخرى في عام ١٩٤٨، أي بعد وفاة جابوتنسكي بثمانية أعوام وتسلم مناحيم بيجن رئاسة هذا التيار الذي تحول بعد ذلك الى تكتل الليكود.

كان من المفارق ان يكون عام ذروة النجاح للحركة الصهيونية في عام ١٩٦٧ هو عام مواجهة حقائق جديدة لم تكن عرفتها، فقد كان ذلك العام بداية ظهور الشخصية الفلسطينية، وتبلورها بعد ذلك حتى ظهرت عصبية على الهزيمة مع نشوب الانتفاضة في عام ١٩٨٧، وهذا ما ادركته الحركة الصهيونية في شقيها العمالي والليكودي بعد نحو ٢٠ عاماً من الصراع مع حركة الشعب الفلسطيني، كانت ابرز محطاته معركة الكرامة في عام ١٩٦٨،

والمعارك المتتالية في جهة جنوب لبنان والتي استمرت منذ عام ١٩٧١ وحتى عام ١٩٨٢ مروراً بعام ١٩٧٨ الذي شهد ما يشبه التدريب على حرب ١٩٨٢، واستمرت في صورة موازية في الضفة الغربية وقطاع غزة عبر العمليات الفدائية ثم النضالات الجماهيرية التي يمكن التأريخ لها بعام ١٩٧٤، والتي بلغت ذروتها في الانتفاضة الكبرى في عام ١٩٨٧.

لقد أسفرت هذه المسيرة النضالية عن اتفاق أوسلو، والذي مهما كان مبعث وحجم اعتراضنا عليه، فانه مهد الطريق لاقامة سلطة فلسطينية، بغض النظر عن قصورها - على الأرض الفلسطينية، وذلك لأول مرة منذ الكنعانيين.

وان كان اتفاق أوسلو تم مع التيار العمالي، فان مجيء الليكود الى الحكم في العام الماضي، واضطراره للقبول بمبدأ الاتفاق والذي يعني في جوهره التخلي عن فكرة أرض اسرائيل حتى في حدودها أيام الانتداب - ناهيك عن أرض اسرائيل الكبرى - يعني في صورة أو أخرى تخليه عن الهدف الصهيوني في اقامة تلك «الاسرائيل». فمن المعروف ان التيار العمالي نفسه كان يعتبر الضفة الشرقية للأردن جزءاً من أراضيه، ففي المؤتمر الصهيوني الثاني عشر أقرت المنظمة الصهيونية «بأن منطقة شرق الأردن، والتي ينظر اليها الشعب اليهودي كجزء متمم من أرض اسرائيل سوف تندمج في منطقة الانتداب الفلسطيني». فاذا تذكرنا ان هناك تيارات في الحركة الصهيونية مثل حزب المابام (فيرتس الآن) كان قد اعلن منذ زمن قبوله باقتسام أرض فلسطين، كما حددها الانتداب البريطاني مع الفلسطينيين، يصبح من غير المتعسف القول ان هدف الصهيونية في اقامة الدولة اليهودية على أرض اسرائيل كما حددها الانتداب البريطاني، أو أرض اسرائيل كما حددها المؤتمر ٢١ للمنظمة الصهيونية، أو أرض اسرائيل الكبرى كما حلم بها «التحريضيون» قد انتهى، ولم يعد يوجد إلا في أذهان بعض الأحزاب الدينية واليمينية

المتطرفة، والتي لديها من الهوس أكثر مما لديها من الفكر مهما كان هذا الفكر عنصرياً.

لكنٍ وصول الفكر الصهيوني الى هذا الوضع لم يأت اعتباطاً ورضوخاً من جانب الحركة الصهيونية، فقد كان ظهور شخصية الشعب الفلسطيني وتبلورها أشبه بظهور جسم الجريمة التي ارتكبتها الحركة الصهيونية واقامت دولة اسرائيل فوق اشلائها، وهي فكرة أخذت مداها في الأعمال الأدبية الاسرائيلية الأكثر أهمية، كما برزت في صورة مجسمة في المؤلفات التاريخية التي وضعها من باتوا يعرفون باسم «المؤرخين الجدد» والذين اكتشفوا، لدى كتابتهم تاريخ اسرائيل، تلك الجوانب اللا اخلاقية في المشروع الصهيوني فلم يترددوا في الغوص فيها ومناقشتها، لكن لذلك قصة أخرى.

الفصـــل التاســع

تأبين الصهيونية
والبحث عما بعدها!

■ عمر كيلاني

الفصل التاسع

تأبين الصهيونية
والبحث عما بعدها!

▪ عمر كيلاني

▪ ما جرى في ذكرى مرور مائة عام على انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال لم يكن احتفالا بتأسيس الحركة الصهيونية بقدر ما كان تأبينا لها من وجهة نظر العديد من المراقبين.

وكان اللافت للنظر ان الذى قام بهذا التأبين هو ابراهام بورج رئيس المنظمة الصهيونية العالمية ورئيس الوكالة اليهودية. فالخطاب - القنبلة الذي القاه بورج في افتتاح المؤتمر اثار ذهول الكثيرين وأثار في الوقت ذاته غضب المسؤولين الاسرائيليين، وكان في الوقت ذاته دعوة للجميع وخصوصا المنظمات الصهيونية وهيئاتها القيادية من اجل وقفة مع الذات للقيام بمراجعة نقدية شاملة لمسيرة مائة عام من العمل الصهيوني المنظم، ولتقييم ما حققته من نجاح وفشل، وما قادت اليه من انتصارات وهزائم ،وما تسير نحوه من مآزق وآفاق مسدودة.

فقد دعا بورج اليهود كافة للبحث وللبدء بمرحلة ما وصفه بـ (ما بعد الصهيونية) وهي الدعوة التي سبق وان طرحها عدد من المفكرين والكاديميين الاسرائيليين منذ سنوات وعقدوا لأجلها اكثر من حلقة وندوة دراسية في محاولة لاستشراف افق ما بعد الصهيونية باعتبار ان الصهيونية قد اوشكت على نهايتها ولا مفر من تجاوزها ان لم يكن الانقلاب عليها.

التأبين

عقد المؤتمر الاحتفالي بمناسبة مرور مائة عام على انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في ذات المبنى (شتات كازينو) الذي عقد فيه المؤتمر الأول عام ١٨٩٧ بمشاركة ١٧٠٠ من الشخصيات اليهودية العالمية، ولفت انظار المراقبين:

١ - الحراسة والاجراءات الأمنية الكثيفة التي فرضتها الحكومة السويسرية لحماية المؤتمرين، حيث شارك بضعة الاف في حراسة مكان المؤتمر والطرق المؤدية إليه اضافة الى طائرات الهليوكبتر.

٢ - عدم مشاركة الرئيس الاسرائيلي عيزرا وايزمان ورئيس الحكومة الاسرائيلية بنيامين نتانياهو في الاحتفال، فالأول اعتذر بسبب ما وصفه بمشاغل بعد أن كان من المقرر ان يشارك فيه، والثاني تصرف وكأن لا وجود للمؤتمر وغادر اسرائيل لزيارة اليابان وكوريا الجنوبية. وقد اقتصر تمثيل اسرائيل في المؤتمر على وفد برئاسة دان تيخون رئيس الكنيست الاسرائيلي.

٣ - التعتيم الذي التزمت به وسائل الاعلام الاسرائيلية كافة على فعاليات المؤتمر سواء من الناحية الاخبارية او غيرها.

٤ - عدم توجيه الدعوة الى اي من اقارب تيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية لحضور المؤتمر الذي أسسه هو، كما لاحظ ذلك مراسل صحيفة يديعوت احرونوت (٢٧/٨).

٥ - ان الخطاب الهام الذي القاه ابراهام بورج رئيس المنظمة حظي بتصفيق وترحيب غالبية اعضاء المؤتمر عدا اعضاء الوفد الاسرائيلي الرسمي الذين غادروا قاعة المؤتمر احتجاجا على ما ورد في الخطاب وهم يدمدمون: ان بورج قد حضر الى مدينة بال ليس ليثني على ميراث هرتزل بل ليواريه التراب.

أما اهم ما قاله بورج في خطابه يندرج ضمن الآتي:

ناشد بورج اليهود رفض دولة صهيونية تقوم على اساس

الأرض وطالبهم ببدء مرحلة ما بعد الصهيونية وقال ان الصهيونية حققت حلم هرتزل ببناء دولة توفر لليهود حصنا منيعا ضد العداء للسامية، وبالنسبة ليهود الشتات فإنهم ينعمون بالحرية وبحقوق المواطنة الكاملة، ولذا فقد حان الوقت للبدء في مرحلة ما بعد الصهيونية وللعودة الى اليهودية للتمسك بأخلاقيتها كي يمتنع اليهود عن ان يصبحوا لا قدر الله - حسب تعبيره - ممن يمارسون الاضطهاد ضد عدوهم.

وانتقد بورج نظريات الصهيونية السياسية واصفا شعارها الذي انطلقت منه والقائل ان فلسطين ارض بلا شعب وان اليهود شعب بلا ارض بأنه تصور خاطىء.

وقال ان على الصهيونية ان تتبنى روحا مختلفة ترتكز على ما اسماه بروح اليهودية المعتدلة وعلى مبدأ (ان تحب لجارك ما تحب لنفسك).

وعرض بورج في كلمته رؤيته للصهيونية في القرن المقبل وقال ان عليها ان تأخذ في الاعتبار الحقائق الراهنة، موضحا ان الصهيونية في القرن الماضي كانت تعني حفزا شعبيا لمنع جعل اليهود هدفا للمطاردة ولمنع جعلهم ضحايا، ووقف تعريضهم للاضطهاد، ثم تساءل: هل يتمكن الشعب اليهودي من البقاء دون عدو خارجي؟ وانتقد بورج بهذا الصدد الزعماء الاسرائيليين قائلا انهم مشدودون الى سياسة الحرب ودبلوماسيتها كما تشد الفراشات الى الضوء غير قادرين على تحديد هويتهم اليهودية إلا اذا احاطوا انفسهم بالاعداء.

واعتبر بورج ان عقلية المنفي انتهت ويجب ان يتجه اليهود الآن الى التعامل مع ازمة هوية نجمت عن غياب عدو خارجي وقال: علينا ان ننظر الى الواقع من وجهة نظر مختلفة.

واعترف ان اسرائيل تواجه أزمة متعاظمة تتمثل في قنابل موقوتة اجتماعية وقومية خلفها وراءهم الآباء المؤسسون للدولة بما فيها العلاقة بين المؤسسة الدينية والدولة والعلاقة بين

اسرائيل واليهود الذين يعيشون في الخارج والعلاقات بين اسرائيل والدول العربية.

ودعا بورج الى تعايش سلمي مع العرب قائلا علينا ان نبذل قصارى جهدنا للتعايش مع جيراننا في الشرق الأوسط، مؤكدا ان هناك افقا ايجابية جدا للسلام وان الطريق الى السلام سيكون صعبا وقال ان السلام يشبه الولادة: الكثير من الألم والكثير من المعاناة والكثير من اراقة الدماء، لكنها حياة جديدة. واضاف ان الأمر يتطلب اكثر من مائة شهر من السلام للتغلب على مائة سنة من الحروب.

ويذكر ان ابراهام بورج يعتبر من الحمائم البارزين في حزب العمل وهو من مواليد القدس المحتلة عام ١٩٥٥ وخريج الجامعة العبرية من قسم علم الاجتماع، وقد انتخب عضوا في الكنيست الاسرائيلي عن حزب العمل في انتخابات عام ١٩٨٨ و ١٩٩٢، ويشغل حاليا منصب رئيس الوكالة اليهودية وايضا منصب رئيس المنظمة الصهيونية العالمية التي لم تنتخب رئيسا لها بسبب الخلافات بين المنظمة وحكومة اسرائيل منذ استقال آخر رئيس للمنظمة ناحوم جولدمان في عام ١٩٦٨ بعد خلافات شديدة بينه وبين دافيد بن جوريون رئيس وزراء اسرائيل السابق، وتجدر الاشارة الى ان الخلافات (كما جاء في دليل اسرائيل العام) بين المنظمة وحكومة اسرائيل تفجرت منذ اقامة الأخيرة عام ١٩٤٨ وما زالت مستمرة حتى الآن (لعل هذا ما يفسر غياب وايزمان ونتانياهو عن المؤتمر) فمنذ ١٩٤٨ رأى بن جوريون ان المنظمة الصهيونية فقدت مبرر استمرارها رافضا اية فكرة لوصاية المنظمة على اسرائيل، وقد ردت المنظمة على ذلك في البداية بالمثل رافضة فرض وصاية اسرائيلية عليها، إلا ان المنظمة تراجعت عن موقفها خصوصا بعد استقالة جولدمان الى ان اصبحت حسب تقدير د. الياس شوفاني في كتاب دليل اسرائيل العام في خدمة السياسة الاسرائيلية الى حد كبير، حيث

اصبحت اداة او هيئة مفوضة من قبل حكومة اسرائيل.

ويبدو ان بورج وعبر خطابه وانتقاده الشديد للمسؤولين الاسرائيليين يحاول ان يستعيد للمنظمة شخصيتها ومكانتها وسياستها المستقلة وان يضعها في موضع الناصح والمرشد لكل اليهود الصهاينة سواء من كان منهم في اسرائيل او خارجها، كما يحاول ان يتقدم للقيام بالدور الذي سبق ان قام به جولدمان عندما شغل منصب رئيس المنظمة الصهيونية العالمية بين عامي ١٩٥٦ و ١٩٦٨.

ما بعد الصهيونية

الدعوة التي وجهها بورج لليهود للبحث وللبدء بمرحلة ما بعد الصهيونية ليست جديدة، وتكمن اهميتها الآن في كون الداعي لها هو رئيس المنظمة الصهيونية العالمية، وهو بذلك اول مسؤول صهيوني بهذا المستوى يوجه هكذا دعوة، كما تكمن اهميتها في المناسبة التي قيلت فيها والمنبر الذي قيلت من فوقه.

فقد تمت الدعوة الى ما بعد الصهيونية ونشرت ابحاث وعقدت ندوات بشأنها، منذ سنوات عديدة، ويقول إيلان بابي استاذ العلوم السياسية في جامعة حيفا في دراسة له تحت هذا العنوان (نشرت في العدد ٣١ من مجلة الدراسات الفلسطينية) ان المناظرة الاكاديمية بشأن الصهيونية بدأت في الثمانينات، ويوضح ان مصطلح ما بعد الصهيونية هو خليط من افكار عامة معادية للصهيونية واصبح تعبيرا ملائما يجمع معا اليهود الصهيونيين والمعادين للصهيونية في الوسطين الأكاديمي والسياسي في اسرائيل، ويلاحظ ان مثقفي ما بعد الصهيونية او المؤرخين الجدد او علماء الاجتماع الجدد ليسوا اول من تحدى الرواية الصهيونية لماضي اسرائيل وحاضرها وان بعضهم

يكتسب ثقة اكبر بالنسبة الى المستقبل عندما يتصور اقامة دولة اسرائيلية بدلا من دولة يهودية، دولة لجميع مواطنيها.

وقد تنبه اولئك في المقام الأول للتناقض الاساسي بين المطامح القومية الصهيونية وبين تحقيقها على حساب الفلسطينيين، ويصور المؤرخون منهم اسرائيل دولة متعنتة ومولعة بالقتال (كلمة بورج) لا ترغب في التوصل الى تسوية او حتى الى اعطاء السلام اية فرصة. ويضيف بابي ان حرب عام ١٩٨٢ شجعت الجدل بشأن العمل لوضع تفسير لا صهيوني للواقع في الماضي والحاضر، اما المساهمة الأكثر أهمية في المنحى الجديد للتفكير فكانت تطبيق منظور كولونيالي على الدراسات التاريخية الصهيونية.

وقد عقدت في تل ابيب في تشرين اول اكتوبر عام ١٩٩٥ ندوة شارك فيها عدد من كبار الكتاب والمثقفين الاسرائيليين خصصت للبحث في الصهيونية وما بعد الصهيونية وعكست الحوارات التي دارت فيها شكوكا وادانات كبيرة للصهيونية فيما يلي ابرزها حسب ما جاء في صحيفة النهار المقدسية في ١٩/١٠/١٩٩٥:

١ - يؤكد الكاتب جلبر ان الصهيونية فشلت في دول الانعتاق وان اسرائيل هي المكان الأقل أمانا لليهود، ويقول: يوجد اليوم اربعة اصناف يهودية: اليهودية الارثوذكسية المحافظة، واليهودية الاسرائيلية العلمانية، واليهودية المندمجة في اوروبا، واخيرا اليهودية الامريكية الفظة والتي كما يبدو هي الأكثر انتشارا، ويضيف:

اعرف ما هي ما بعد الصهيونية، عمليا هنا محاولة لتجاوز نمط القومية اليهودية الى النمط الآخر، اننا ندرك النمط الغربي للقومية كاتحادات طوعية وكذلك نعرف النمط الألماني للقومية المنظمة، لقد تطورت الصهيونية وفق النمط الألماني والآن نحاول نقلها الى النمط التطوعي، ولما كنت اعتقد ان الصهيونية او

القومية اليهودية هي قومية منظمة فلا اعتقد ان المحاولة ستنجح.

٢ - يؤكد المفكر فافا ان الصهيونية تمر اليوم في أزمة ويقول: اذا كنا نفحص نجاح الصهيونية حسب الأهداف التي وضعتها لنفسها فإن الصهيونية لم تنجح، ولو فحصنا الصهيونية كحركة قومية لكل الشعب اليهودي نراها فشلت وقد خلقت في اسرائيل قومية اقليمية (اي اسرائيلية).

٣ - يقول الكاتب توم سيجف: الصهيونية بصيغتها الموجودة في اسرائيل هي الحرب من اجل اقامة الدولة وحمايتها، وانا اعرف الصهيونية من خلال حربها، وعندما تنتهي كل الحروب سنسأل ذاتنا اذا كنا نريد العيش بدون صهيونية، وطالما لم يسد السلام فلن نرى انفسنا في وضع ما بعد الصهيونية.

٤ - الباحث بني موريس اكد في الندوة ان الـ (ما بعد) صهيونيين لا يريدون ان تكون الصهيونية الأم والأب لرؤية واقعهم.

٥ - واخيرا قال الكاتب يوسف غورني في الندوة ان ما بعد الصهيونية من وجهة نظره تعني الغاء القومية اليهودية، اي الغاء دولة اليهود والغاء قانون العودة واستبدالها بقومية اسرائيلية ودولة اسرائيلية لكل مواطنيها.

وردا على تصاعد قوة تيار الدعوة الى ما بعد الصهيونية شن امنون روبنشتاين وزير الثقافة في حكومة حزب العمل السابقة حملة وهجوما شديدين ضد اولئك الدعاة وخصوصا من ينتمون منهم الى المؤرخين الجدد الذين اتهمهم باتباع وجهة النظر العربية القائلة بأن الصهيونية هي حركة كولونيالية، وواصفا اولئك الدعاة بانهم (معادون للصهيونية) إلا ان الكاتب الاسرائيلي اليساري ايلي امينوف (مجلة الهدف ٢٤ تشرين ثاني ١٩٩٤) انتقد الوزير روبنشتاين وانتقد ايضا اولئك الدعاة مؤكدا ان الدعوة الى ما بعد الصهيونية هي محاولة للالتفاف على أزمة

ومأزق الصهيونية القائمة على الأكاذيب ، وان الغرض منها هو اعادة تعريف حدود الخطاب الصهيوني الشرعي وقلع (الاعشاب الضارة) وتخفيف وطأة التناقض الفكري الذي نشأ لدى قسم من النخبة الفكرية الاسرائيلية نتيجة استمرارية نضال الشعب الفلسطيني من أجل استعادة ارضه وحقوقه المغتصبة.

وتعكس كل هذه الدعوات والحوارات حقيقة مؤكدة هي مأزق الصهيونية بعد مائة عام على انعقاد مؤتمرها الأول ومأزق اسرائيل بعد ٤٩ عاما على قيامها ومأزق العلاقة بين الاثنتين ومستقبلهما رغم كل ما حققتاه خلال ذلك، وقد ميزت صحيفة يديعوت احرونوت الاسرائيلية في ١١/١٢/١٩٩٥ بين صهيونيتين هما (صهيونية الحد الأقصى الفتية وصهيونية الحد الأدنى المتهالكة) وميزت ايضا بين صهاينة ارض اسرائيل او صهاينة صهيون وبين صهاينة دولة اسرائيل الذين يرون ان الخط الأخضر (حدود اسرائيل عام ١٩٤٨) خط غير قابل للتغيير مؤيدين الانسحاب من الأراضي المحتلة منذ عام ١٩٦٧، وهم من يطلق عليهم اليوم اصحاب الدعوة الى ما بعد الصهيونية.

طبع بمطابع مؤسسة الاتحاد للصحافة والنشر والتوزيع